Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

892.78
Z64hA
SPC
PJ
7876
.J9
Z6
1942
RBK

محمد عبد الحي حسن

كلية بير زيت
٥٨
BEERZEIT COLLEGE

حياة مي

هرابي

طبع بمطبعة التقدم بالفجالة
١٩٤٢

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

الرحومة الآنسة ميّ

الآنسة مي

[مات ظهر يوم الأحد ١٩ اكتوبر سنة ١٩٤١]

ولدت الآنسة مي زيادة قبل مطلع القرن العشرين ببضع سنوات في الناصرة من أعمال فلسطين — وهي البلدة التي عاش فيها السيد المسيح — من أبوين يختلفان في المذهب المسيحي ، فالأب ماروني والأم أرثوذكسية . ومن هنا لم يكن عندها — كما تحدثت هي عن نفسها — تعصب لأحد المذهبين .

ولما انتقلت الأسرة إلى قضاء كسروان من أعمال لبنان دخلت الطفلة مارى زيادة مدرسة للراهبات الأجنبيات بعين طورة ، وتعلمت هناك قليلا من العربية وكثيراً من الفرنسية ، واشتهرت بين الطالبات بحسن الالقاء والبراعة في الانشاء ، وكانت تقوم بالأدوار الأولى في الروايات التي تخرجها جماعة التمثيل بالمدرسة .

ولما أتمت دراستها ابتدأ اسمها يظهر في لبنان خطيبة ناشئة ، وخاصة في حفلة (الكوخ الأخضر) التي أقيمت لتكريم الفتاة اللبنانية ممثلة في « مي » في ظهور الشوير بلبنان سنة ١٩١١ .

وكانت خطبتها في « الكوخ الاخضر » مقدمة لمواقفها الخطابية المشهورة بعد ذلك . وانتقل أبوها المرحوم الياس زيادة إلى مصر ، وتولى اصدار جريدة المحروسة ، فانصرفت مي عن الكتابة بالفرنسية — وخاصة بعد ظهور ديوانها الفرنسي زهرات حلم — إلى الكتابة بالعربية ، وكانت مقالاتها تظهر في « المحروسة » ، وفي مجلة الزهور التي كان يصدرها وقتئذ أنطون بك الجميل .

ولم تشغل الكتابة ميآ عن الدرس والتحصيل ، فكانت تحضر المحاضرات في الجامعة المصرية القديمة لتكمل ثقافتها وتوسع أفق معارفها وخاصة فيما يتعلق بالتاريخ الاسلامي والفلسفة .

وأحبت الآنسة مي الشرق والعربيـــة حباً جماً على الرغم من ثقافتها الأوربية الواسعة ، وغيرت اسمها « ماري » إلى « مي » ، وهو اسم عربي صميم .

وكانت مي فتاة بارزة تحدث الرجال وتستقبلهم في نديها الادبي الذي اتخذته في منزلها ، وكان يقصده الكبراء والعلماء والادباء والشعراء . وللمرحومين الدكتور شبلي شميل والدكتور يعقوب صروف واسماعيل باشا صبري وولي الدين يكن جلسات حافلات في ذلك النادي .

ولما مات أبواها على الولاء متعاقبين استسلمت مي إلى الهموم ، ووجدت في شعرها سلوة لها ، وغالبتها ألوان من الوساوس فقطعت ما بينها وبين أصدقائها من صلات ، ولم تطلع لقاء أحد ، وعادت إلى مصر — بعد أن كانت قد حملت إلى لبنان همومها وشجاعتها تجاعيد الوهن والألم في وجهها الوسيم . وغابت كالشمس ولكن

Digitized by Birzeit University Library

مى الشرقية

اطلعت مى على الأفكار الغربية — المتطرف منها والمعتدل — وكانت قراءاتها للآداب الإفرنجية واسعة متعددة ، وكانت مكتبتها الخاصة لا تخلو من كتاب جديد فى بحث جديد أو مذهب جديد أو رأى ذهب اليه ذاهب .

وكان ترددها على المكتبة العامة كثيراً ، وخاصة على القسم الأفرنجى ، وكانت كتب الاجتماع تعجبها وتظفر من قلبها بمحل كبير ، ويظهر أثر هذا الاطلاع الواسع العريض فى كتاباتها المختلفة .

وسافرت « مى » الى أوربا غير مرة ، وشاهدت كثيراً من عواصمها ، ورأت بعينيها أحوالها ومشاهدها ، فلم تأخذ معارفها من الغرب عن طريق الكتاب وحده ، بل رأت أن تستعمل فى ذلك بصرها كما استعملت فى الكتب بصيرتها .

وغريب أن تبدو « مى » هذه محافظة على تقاليدها الموروثة ، وعادات أهلها وقومها ، فما عرف أنها احتقرت تقليداً ، أو ازدرت بعرف شرقى عام . بل عرف أنها كانت تبالغ فى الظهور بمظهر شرقى ، وكانت تنعى على جماعة العصريين أو الآخذين مأخذ الفرنجة سبيلهم ، وتتوجع وترثى ظاهراً أو باطناً لما يبدو من أحوالهم .

وبلغ حفاظ مى على شرقيتها وقوميتها مبلغاً عظيماً ، فمع اتقانها لتسع(١) لغات أوربية كتابة وقراءة ، ومع تمكنها من تلك اللغات تمكناً ندر أن يجتمع إلا للقليل من الناس ، ومع حلاوة تحدثها — مع ذلك كله لم تكلم مى غير العربية ، ولم تختر للكتابة غير العربية . وكان فى استطاعتها أن تكتب فى الفرنسية مثلا وتجد كما أجادت فى ديوان شعرها الأول المسمى « زهرات حلم » "Fleurs de Rêve" .

الحق أن ميا كانت تكتب ببعض هذه اللغات الأجنبية فى الصحف والمجلات الأجنبية ، ولكن معالجتها الكتابة بغير العربية لم تكن تظاهراً منها بالعلم وادعاءاً منها للمعرفة ، ولكنها كتبت لمن لا يعرفون العربية بلغاتهم التى يحسنونها ويعرفونها لعلها تستطيع أن تطلعهم على رأى خاص لها أو فكرة تذهب اليها ، أو لعلها تدافع عن تهمة يتهم بها الشرق فلا تجد سبيلا للدفاع بغير لسان أجنبى .

---

(١) ذكر الاستاذ العقاد فى الرسالة عدد ٤٣٥ أن ميا أتقنت خمس لغات ، والحق أنها — كما حدثت هى عن نفسها فى هلال ابريل سنة ١٩٢٨ — اتقنت تسع لغات

Digitized by Birzeit University Library

ومن عجب أن يكون ديوان شعرها الفرنسي « زهرات حلم » هو نقطة التحول التي بدأت منها تتجه اتجاهاً عربياً في الكتابة ، وكأن « ميا » اللبنانية العربية عز عليها أن تهمل لغة آبائها ، ولسان عشيرتها وتكتب بلسان أعجمي

على أن ذلك لا يعني أنها انصرفت عن الكتابة بغير العربية كل الانصراف ، فقد كتبت بالفرنسية من حين إلى حين كما أسلفنا ، وكانت تنظم شعراً فرنسياً في مناسبات تدفعها إلى النظم . ولها نشيد فرنسي نظمته ترحيباً بالطيار الفرنسي فيدرين بمناسبة مقدمه إلى مصر قبل الحرب العظمى الماضية . ولقد لاقى هذا النشيد ترحيباً من الفرنسيين وتقديراً من الصحافة الفرنسية فنشرته صحف باريس الكبرى مع كلمات الاطراء والاعجاب .

كما كتبت بالانجليزية رواية عنوانها The Shadow on the Rock ونشرت في مجلة « سفنكس » الانجليزية

كما كتبت مقالا بالفرنسية تخاطب فيه عصفوراً صغيراً ، وتعود بعد ذلك فتكتب مقالا بالعربية في الموضوع نفسه

وكانت رسائلها بالطبع إلى كتاب العربية بالعربية نفسها ، وكانت الفرنسية أحب اللغات الأجنبية اليها للكتابة بها .

فمي لم تهجر اللغات الأجنبية جملة في سبيل محافظتها على شرقيتها ، ولكنها — على الضد من ذلك استعملت هذه اللغات التسع لتدافع بها عن الشرق ، ولترى الناس سر المثالية الموجودة فيه ، ولم تستعملها تظرفاً أو تندراً كما يصنع بعض الضعفاء .

ولقد ذكر الأستاذ العقاد (١) أن الأدباء تذاكروا يوماً في مجلسها مناقب رجل من أعظم الرجالات في مصر فشاركتهم اعجابهم به وثناءهم عليه ، ولكنها استأذنت بعد ذلك أن تؤاخذه أمامهم على أمر صغير .

ولم تكن مؤاخذة « مي » هذا الزعيم العظيم إلا لأنه بدأ محادثها باللغة الفرنسية بعد أن قدمها اليه الأستاذ أحمد لطفي السيد ، وأصر هذا العظيم على محادثتها بالفرنسية ، وأصرت هي على الرد عليه بالعربية .

فغضبت « مي » ولم يكن غضبها إلا لأن عظيما مصرياً خاطبها بغير لغته ولغتها .

ولقد حدثني الدكتور منصور بك فهمي كثيراً عن محافظة مي وخاصة فيما يتعلق بناحية اللغة ، وذلك يدل دلالة واضحة على نضوج الفكرة الشرقية العالية في نفسها ، ورسوخ العقيدة القومية فيها .

وبلغ من تمسك مي بشرقيتها أنها كانت — كما حدثتني الكاتبة الفاضلة السيدة أمي خير — تقدم

(١) مجلة الرسالة العدد ٤٣٥

Digitized by Birzeit University Library

إلى ضيوفها وجلاسها شراب الورد أو شراب البن فى أقداح على طريقة شرقيـــة محبوبة بحيث يشعر الجالس أنه فى دار شرقية .

وكان فى استطاعة مى أن تجارى العصريين فيما ذهبوا إليه من ضروب التحية الأوربية وألوان الضيافة الغربية ولكنها آثرت أن تظل محتفظة بتقليد يدل على احترامها لتقاليد قومها

* * *

ولمى رأى سديد فى الاقتباس من عناصر المدنية الغربية ، فهى لا تؤمن بأن هناك مدنيات متعددة للشرق والغرب والشمال والجنوب ، ولكنها تؤمن بوجود مدنية واحدة تعاونت الشعوب ـــعلى غير اتفاق ـــ أن تتناوب العمل كل فى جانب من جوانبها الموافق طبيعتها [١] فعند الساميين النبوات والرسالات . وعند الآريين (الهنود والفرس) الفلسفة الباطنية والألهيات ، وعند اليونان الفن والفلسفة النظرية ، وعند الرومان التشريع والفقه ونظم التوسع والاستعمار . وجاء العرب فجمعوا هذه الثقافات المختلفة وورثوا هذه المدنيات العظيمة وطبعوها بطابعهم .

وترد مى كثيراً من مظاهر المدنية الغربية الحديثة إلى الشرق القديم ، وتفخر بأن الأشوريين والبابليين أول من وضع أساس الهندسة ومبادىء الفلك والرياضة وحفر الخنادق . وأن المصريين أول من وضع الأنظمة ونسق الادارة [٢] ، وأن القوانين الحديثـة ترجع فى سلسلة النسب الى تلخيص الفرس قوانينهم من القانون المصرى القديم .

وعلى هذا الأساس لا ترى مى [٣] أية غضاضة على الشرق فى اقتباس الأنظمة الأوربيـــة ، والمنافع العلمية وأساليب العمران ووسائل التجارة . وترى أننا إذا تخلفنا عن الانتفاع بما بيديه الغرب من نشاط وحياة سجلنا البله على نفوسنا ، والخمول فى عزائمنـا . وكان أولى بنا أن نرجع إلى ركوب الظعائن فى البيداء والسكنى تحت الخيام .

وحينما تدعو مى الى مجاراة الغرب فى ميدان الحياة والنشاط والكفاح والنضال فانها لا تنسى شخصية الماضى فى الشرق ولا تنسى مثله العالية ، ولا تنسى طهارة أرضه التى شرفتها الرسالات ، ولا قدسية سمائه التى نزلت منها النبوات .

ولا ترى مى فى قدسية الشرق وعراقته موضعاً لأن يصرفنا ذلك الفخار عن السير فى مضمار الحيـاة المادية التى نحياها وتقول فى عبارتها الجميلة فى كتابها « بين الجزر والمد » [عندنا عادات جميلة ووراثة أثيرة تحسن المحافظة عليها غير أنها لا تكفينا . ليتغن بها الشعراء ولينشدها المنشدون ولينح عليها محبو الندب والنواح . . ولكن مهماز الحيـاة وراءنا ، واقتباس المحتوم لا يغض من

(١) كتابها بين الجزر والمد ص ١٧٢ (٢) المصدر نفسه ص ١٧٣ (٣) نفس المصدر ص ١٧٤

Digitized by Birzeit University Library

مرامة الأمم لأنها مركبة من روح وجسد . فشعرها وفلسفتها وفنونها وألهياتها وأديانها وتذكاراتها الثمينة كل هذا بمثابة غذاء الروح. أما الحياة المدنية منها، الحياة المحسوسة فلها أساليبها الآلية والمالية والاقتصادية والاجتماعية] .

* * *

كانت مي محافظة على الروح الشرقية بالرغم من اطلاعها الواسع على الآداب الغربيـــة ، ولا تجد هي نفسها في الجمع بين الاثنين تعارضاً أو تناقضاً . بل على الضد من ذلك ترى ان دراسة الأدب الغربي تزيدنا تعرفاً بالعالم واستيحاء (١) . فلماذا لا يدرس العربي الآداب الغربيـة ويظل أديباً عربياً ؟ ألم يأخذ دانتي فكرة مسرحيته من مصادر عربية ومع ذلك فقد ظل أديبه ايطالياً ؟ ثم ألم يأخذ شعراء فرنسا في القرن السابع مصادر وحيهم من آداب غريبـة عنهم ومع ذلك فقد ظل أدبهم فرنسيا ؟

ومن هنا نفهم السر في حفاظ مي على شرقيتها وعربيتها على الرغم من ازدحام المعارف الأوربية والثقافات الغربية في رأسها ، فهي لم تأذن لهذه اللغات أن تزاحم مكان العربيـة ، ولم تأذن لثقافة الغرب أن تطغى على شرقيتها . وهي لم تطلع على الآداب الغربية — كما تقول — لتقتبس بل لتتعرف وتستوحي .

ومي حينما تمجد روحانيـة الشرق وتسبح بمعنوياته لم ترده أن يكون وطناً للتبتل والزهد ، وداراً للرهبنة أو تكية للعجزة الوكلين ، ولكنها تريده ألا ينسى نصيبه من الدنيا ، وألا يعتزل في ركن ركين سابحاً في أحلامه وأوهامه ، ومتغنياً بأناشيد مجده القديم ، ومكتفياً بما كان من غير أمل فيما سيكون . ولها في ذلك عبارة جميلة [لقد أعطى الشرق الغرب أدياناً واخلاقاً وفلسفة آلهية وأنبياء والاها فتلقاها الغرب شاكراً وارتقى بها . أفيخجلنا أن ننتفع باختباراته الدنيوية وعلمه ، والدنيا دنيا الجميع كما أن الله خالق الجميع] (٢)

ولقد كانت كل كلمة تقولها مي في سبيل الشرق نشيداً يصلح لأن تتغنى به النفوس الضعيفـة فيبعث فيها القوة والكرامة ، وكانت أناشيدها للشرق مزيجاً بين الفخار والحماسة ، فهي تفخر بماضيه وتدعو النفوس الى اليقظة والى نفض الكرى عن العيون حتى يتفتح أمامها جمال العالم الوسيع . وتقول [بنسيم (٣) وطني امتزج الوحي والنبوات . ومع أشعة الشمس فيه انتشرت سور الجمال] وتناجي الشرق بقولها :

أيها الشرق ! يا شرقي الكبير الرهيب الرؤوف

(١) بين الجزر والمد ص ١٧٧ (٢) بين الجزر والمد ص ١٧٩ (٣) ظلمات وأشعة ص ١٤٣

Digitized by Birzeit University Library

يا شرق الطرب والحيا والنخوة والشدة العاصفة كريح السموم !

انك لتتجمع تحت نظرى كلوحة مصورة ، فأرى منك الفقر ، والجهـــل ، والاضطراب والاحتدام ، والانفعال . ليس فيك فيض الثروة ومعجزات الحضارة . ربوعك خالية مما لدى الأقوياء من صروح ومعاهد ومصارف ومعامل . ربوعك خالية من المتاحف والخزائن والودائع المجلوبة من قصى الأنحاء .

انك جاهل فقير مفكك الأوصال

ورغم ذلك فأملى بك عظيم كالحياة والحرية !]

وتدعو الشرق النائم الى النهوض بقولها : (١)

[ها قد جاء وقت النهوض ! فالى النهوض رغم النوائب والمثبطات ! الى النهوض ! حولك الأقوياء يكافحون ويجاهدون ويغنمون . وهم رغم ذلك يئنون فى الظلام « هناك فجر منتظر لم يلح بعد ! »

.... أنت برج الفجر ، أيها الشرق . أنت مزجى الأشعة !

فقم واعمل ! قم وارقب من أى أنحائك يلوح مشعل الضياء]

* * *

كانت مى — رحمها الله — تؤمن بالنهضة الشرقية ، وترى أن دوافعها حاضرة عتيدة ، وأن هذه النهضة لم تكن فوراناً وقتياً ، بل هى ماضية فى سبيلها ، وأن أكبر دوافع هذه النهضة هو الاحتلال الذى نكب به الشرق ، ومادامت الأذهان سائرة فى طريق التنور والتيقظ لمعنى الحرية فستظل النهضة سائرة لا يستطيع أحد مقاومة صداها الرنان المتفشى فى النفوس (٢)

وكانت ترى أن الصراع بين الشرق والغرب سيظل متتابعاً بين الفريقـــين ، فالغرب يدافع عن ثروته وحياته ، والشرق المتيقظ يطلب كذلك ثروته وحياته (٣)

(١) بين الجزر والمد ص ٨ (٢) بين الجزر والمد ص ١٦٩ (٣) بين الجزر والمد ص ١٧١

Digitized by Birzeit University Library

مي والفكرة العالمية

كانت مي شرقية مؤمنة بقيم الشرق ومثله العالية ، وكانت محتفظة بتقاليد الشرق مع حسن الاقتباس عن الغرب فيما يعلي الحياة الشرقية ويكمل نقصها فى المادة والآلة والاجتماع وغيرها .

ولقد كانت مي لبنانية بأصلها ، مصرية بنشأتها ، عربية بلغتها . ومن هنا تنازعها وطنان لبنان وجباله ، والنيل وجماله ، إلا أنها آثرت أن توسع نظرتها فى التقسيم السياسى فجعلت الشرق كله لها وطناً ، وكلمة الوطن عند مي تعني الشرق كله .

والحق أن ميا كانت موزعة القلب والحب والعواطف بين مصر ولبنان . ولها فى «نهر الصفا» المتدفق عند قدم الجبل هناك نشيد يدل على مبلغ تعلقها بالتربة اللبنانية الخالدة ، ولقد جمعت من أعماق النهر اللبنانى بعض الحصى الملونة الجميلة ووجهت اليها الكلام قائلة : [أيتها الجواهر ! سأحملك معى إلى وادى النيل لتذكرينى بالعواطف الكثيرة التى تلاطمت فى فؤادى أمام نهر الصفا . . . أنتِ ذكر الأبدية التى حييت فيها لحظة]

وكانت هذه اللحظة التى وقفتها مي أمام النهر المتدفق إلهاماً لنشيد خالد كأنه ترانيم مياه النهر على البطحاء والرمال والصخور . . .

لقد أحرقت « مال الملتهبة قدمى هذه الشاعرة ، ومزقت يديها أشواك الحياة فأدمتها الجروح الداميات . . . فوفدت على « نهر الصفا » بلبنان تستخلص من أعشابه بلسما لجراحها . . . وتغسل غبار المادة عن جسدها بمياه النهر المقدسة(١)

ولها فى مصر كذلك نشيد خالد عنوانه « عند قدمى أبى الهول » أبدعت فيما شاء لها الابداع فى استعراض مفاخر التاريخ المصرى القديم ، وحاولت فى سلسلة من الأسئلة أن تعرف سر أبى الهول الصامت وأن تفتح مغاليق قلبه ، وأن تعرف إلى أى حقيقة رمز به الرامزون . وتسأله عن سر الأهرام ، وهل شيدها المصريون منائر للصحراء أم مدافن للفراعنة أم حصون دفاع أم مستودعات كنوز أم مجتمع عشاق ؟(٢)

وكان لمى مشاركة فى مصائر مصر ولبنان السياسية والاجتماعية والأدبية فلبنان يشغلها ،

(١) ظلمات وأشعة ص ٢١ (٢) ظلمات وأشعة ص ١٥٥

Digitized by Birzeit University Library

ومصر تهمها . ولا أظن أن « المجمع اللغوى المصرى » عناها يوماً أكثر مما عناها « المجمع العلمى بدمشق » أو « المجمع العلمى » ببيروت .

ولا أظن كذلك أن اهتمامها بالأدب فى الشام ومتابعة نهضته كان أقل من اهتمامها بالأدب فى مصر[١] .

ووراء هذين الوطنين كان يشغلها الوطن الأكبر وهو الشرق الذى طالما تغنت مى بآثاره وأخباره . وعلى أساس هذه النظرة لم تكن مى لتشغل نفسها بمنازعات السياسة المحلية فى مصر أو الشام إلا بالقدر الذى يتيح لها الاشتراك فى أمور وطنها .

ولهذا كانت سياستها التى يصح تطبيقها على كل قطر من أقطار الشرق أن يتاح لهذه الأقطار أن تصحو من رقادها الطويل وسباتها العميق ، وأن يكون الشرق كله كتلة واحدة تقوم وتستيقظ لتعيد الصحو واليقظ والتنبه إلى النفوس بعد خمود طويل .

وكانت مى تعطف العطف كله على قضايا الشرق السياسية ومسائله ، ووسائله لنيل الحرية ، وكان عطفها على القضية المصرية عطفاً محموداً تجلى فيما كانت تكتبه .

وتبدو الفكرة الشرقية واضحة فى مقال كتبته مى بعنوان « اليقظة »[٢] تحيى به يقظة الأمة المصرية ونهوضها للمطالبة باستقلالها بعد انتهاء الحرب العظمى . فقد انساقت مى من الحديث عن مصر إلى الحديث عن الشرق ، وكان أكثر من نصف المقال مناجاة للشرق واستنهاضاً له على القيام والعمل .

* * *

وتتسع فكرة الوطنية عند مى رويداً رويداً ، فتنتقل من مصر ولبنان إلى الشرق العربى ، ومن الشرق العربى إلى الشرق كله قاصيه ودانيه ثم تنتقل من الشرق متخذة لها وطناً أوسع وأرحب ، وأرضاً أطول وأعرض — إلى العالم كله من مشرقه إلى مغربه ، ومن شماله إلى جنوبه . . .

ويظهر أن هذا الانتقال الواسع إلى فكرة العالمية قد وجد طريقه إلى مى بعد السنوات العشر الأولى من حياتها الأدبية ، فقد كانت فى تلك السنوات شرقية الوطن ، ولم تتسع فى خلال تلك السنوات آفاق نظرتها إلى العالم .

وبدأ هذا الاتجاه فى (الوطنية العالمية) يظهر عند مى بعد الحرب العظمى الماضية بثلاثة أعوام أو أربعة .

ولذلك أسباب وأسباب . . . ففى ميلاد مى وفى نسبها وفى اختلاف مذهب أبويها الدينى ما يعين على اتساع نظراتها الى الأشياء . . .

---

(١) بين الجزر والمد من مقال عنوانه تكلموا لتفكم ص ٨٦ (٢) بين الجزر والمد ص ١

Digitized by Birzeit University Library

لقد ولدت مي فى بلد ، وأبوها من بلد ، وامها من بلد وانتقلت فى السكنى من بلد الى بلد ، وأشباح نفسها تنتقل من بلد الى بلد ، فألى أى هذه البلدان تنتمى؟ وعن أى هذه البلدان تدافع[١]؟

ثم تتسع النظرة عند مى فترى أن كل أمة تتحدث عن عظمتها وكل دولة تفتخر بتاريخها ،وكل جماعة تخبر عما أسدته الى المدنية والانسانية فتقف متسائلة فى عجب أى هذه الأمم أحق بالفخر ، وأيها أولى بالعظمة وأيها كان أكبر نصيباً فى الحضارة ؟

وتصبح عواطفها موزعة بين الأمم ، نهباً بين البلاد فتقول [ما سمعت وصف بلاد إلا سعى اليها اشتياقى ، ولا حدثت عن بسالة أمة وسؤددها إلا تمنيتها أمتى ، ولا أصغيت إلى صوت قوم إلا خلته صوت يأسى وأملى

[..... ولا تخيلت مسافات الأرض وأبعاد الفلك والصحارى والبحار والكواكب والعوالم إلا اهتاجنى الحنين اليها كأنها أوطان يردد هواؤها ترنيمة طفولتى وتنتظرنى فيها قلوب الأحباب والخلان]

ولا شك أن اتساع آفاق الثقافة عند مى كان له أثر فى اتساع آفاق وطنيتها ، فالعالم كله وطن لمى لأنها لا تفهم من الوطنية هذه الحدود الوهمية التى تصطلح عليها الدول لتقيم الفوارق بين بعضها بعضاً . . .

ولقد تحدثت هى عن ذلك مع الأستاذ سلامه موسى[٢] فقالت [لعل معرفتى لتسع لغات قد زادت فى حدود وطنيتى ، وجعلتنى أنظر إلى العالم كأنه وطنى الأكبر . ولعل سياحتى فى أوربا قد زادت فى نفسى هذه العقلية]

وترى مى أن هذه النزعة العالمية هى أرقى النزعات أو بعبارة أضبط هى نزعة فئة راقية من الكتاب ، وتعترف أن الكاتب من هذه الفئة لفرط رغبته فى الثقافة العالمية يكاد يناقض نفسه عندما تنزع به النزعة الأولى الوطنية[٣] .

وقد يكون هناك سبب آخر لفكرة مى العالمية ، ولكنها لم تشر اليه فيما أشارت من مقال أو حديث ، وأظن أن الحرب العالمية العظمى وما جرّته من الخراب والتهديم بسبب ظهور القوميات والوطنيات الصغيرة كانت عاملا من عوامل التوسع فى الوطنية عند مى .

وكأن منطقها كان يقول إذا كانت الوطنيات الصغيرة والقوميات المختلفة قد سببت للعالم حرباً ضروساً طاحنة اكتوى بنارها المذنب والبرىء ، فان الوطنية العالمية الواسعة الحدود أضمن طريق لنشر السلام وحفظ المودة بين أبناء الانسانية . . .

---

(١) ظلمات وأشعة ص ١٤٠ (٢) مجلة الهلال عدد ابريل سنة ١٩٢٨ ص ٦٦٠ (٣) المصدر السابق

Digitized by Birzeit University Library

مى والأديان

ولدت مى من أب ماروني وأم أرثوذكسية فى الناصرة بلد المسيح عليه السلام ، ومن هنا لم يكن عندها مجال للتعصب لأحد المذهبين، وتكاد العبارة السابقة تكون نص ألفاظها فى حديث لها نشر بمجلة الهلال (١)

ولم يعرف عن مى تهاون فى أمور دينها أو زيغ فى عقيدتها ، بل كانت متدينة كثيرة التدين ، ولم تزعزع الأحداث الأخيرة التى اصطلحت عليها شيئاً من ثبات ايمانها ، بل زادتها ايماناً وثباتاً. وهى فى ذلك تشبه لدويج فان بتهوفن مع فرق بسيط . . فان ذلك الموسيقى العبقرى استسلم لليأس وتعرض ايمانه للضعضعة عند ما انتابته الآلام ولكنه عاد بعد ذلك فصفت نفسه الثائرة وظهر صفاؤها فى الحانه الأخيرة .

أما « مى » فلم يضعف ايمانها يوماً واحداً ، ولا قطعت الآلام الأخيرة حبل تدينها المتين .

وقد أكد لى ذلك كثير من المتصلين بها ، وخاصة الأستاذ العقاد الذى أكبر فيها هذه الناحية (٢) . والذى أكد لى أن مياً لم تكن مؤمنة بقلبها وعواطفها فقط كما يفعل كثير من الناس، بل كانت متدينة بعقلها وتفكيرها. لم تنخدع مى بما قرأت من كتب الملحدين والهدامين ، وكثيراً ما قرأت كتبهم لتعرف مرامى كلامهم واتجاه حديثهم ولكنها لم تتأثر بواحد منهم ، ولم تجد هذه النزعات الالحادية طريقاً اليها ، وكانت تناقش فى الدين وتتناظر فى اللاهوت ، ولكنها كانت دائماً عن صفوف الملحدين بمعزل ، وعن جانب اللادينيين بمنأى بعيد .

ولكن مياً المسيحية المحافظة على تعاليم دينها لم يكن ليضيق صدرها بما رحب من الديانات الأخرى ، ولم يعرف التعصب سبيلا الى عقلها الواسع وقلبها السمح . فهى تحترم الاسلام وتشيد بفضله ، وتحترم شريعة موسى ، وتحترم كل شريعة تحض على الخير وتدعو الى السلام والأمان . ولعل هذه النظرة السمحة الى الأديان والشرائع هى أثر من آثار العقلية الواسعة التى اكتسبتها مى من دراساتها الأوربية المختلفة ومن أسفارها ورحلاتها ، ومن ظروف مولدها التى قضت عليها ألا تكون متعصبة . ولقد أنصفت «مى» الاسلام حينما تعرضت للكلام عن مبادئه الديمقراطية وأساليبه الديمقراطية فى بحثها الممتع من كتابها « المساواة » (٣) .

وترى فى اتخاذ ملوك المسلمين زوجات شرعيات من جواريهم أتم مظهر من مظاهر الديمقراطية ، كما ترى فى ارتفاع أفراد من الطبقة الدنيا الى أسمى المناصب مظهراً آخر من مظاهرها فى الاسلام.

(١) الهلال عدد ابريل سنة ١٩٢٨ (٢) راجع حديث العقاد فى هذا الكتاب (٣) المساواة صفحة ٨٤

Digitized by Birzeit University Library

وان كانت لم توف البحث حقه من هذه الناحية ، ففى القرآن آية هى لب اللباب فى الديمقراطية هى قوله تعالى (يا أيها (١) الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير)

وأنصفت مى، اليونية كذلك - وهى ديانة غير سماوية - لأنها تدعو الى المساواة بين الناس .

وتبدو سماحة « مى » و بعدها عن التعصب الدينى الممقوت حينما تعالج موضوعاً يتعلق باللغة العربية ، فهنا يظهر تحمسها للغة التى سنين فى فصل تال مبلغ غرامها بها واشفاقها عليها ، وهنا تذكر القرآن وفضله على المدنية القومية والحضارة العربية ، وهنا يصح أن ندون نص عباراتها حيث تقول [ان الذى كان باعثاً على تكوين المدنية العربية هو هو الذى ما زال حافظها الى اليوم : هو القرآن لذلك ستظل اللغة العربية حية ما دام الاسلام حياً ، وما دام فى أنحاء المسكونة ثلاثمائة مليون من البشر يضعون يدهم على القرآن حين يقسمون] (٢)

كانت مى ترى فى الأديان كلها خيراً على العالم و براً بالانسانية ، فهى لهذا تنصفها ، ولا تنكر عليها وجوه الخير والبر والجمال فيها ، ولكنها لم تشغل نفسها بمناقشات تفضى الى الموازنة بين عقيدة وعقيدة ولم تضيع وقتها فى مجادلات تصل الى تفضيل مذهب على مذهب .

وكانت لبقة كيسة حينما تكتب فى موضوع يتصل بالأديان من قريب أو بعيد ، فالمسيحى يقرؤها وهو راض عنها لأن فكرتها فكرته . والمسلم يقرؤها وهو راض لأنها تنصف ملته وتحترم عقيدته ولو أتيح لبوذى أن يقرأها فلا أشك فى أنه سيرضى عنها لأنها تكتب لكل انسان ، ولجميع الاديان . ولقد تعرض بعض الكتاب لسخط الجماهير من القراء - وغير القراء - لأنهم لم يلتزموا الحرص فى كتابتهم، ولأنهم أباحوا لأنفسهم من حرية الفكر ما تضيق به سعة المذاهب ... الا ميا ، فما أثارت مسيحياً وهى متدينة ، ولا أغضبت مسلماً وهى مسيحية .

لقد كانت مى - كما قال الأستاذ سلامه موسى فى مقدمة كتابها بين الجزر والمد - تساير الشباب فى تشوفه إلى صوفية طليقة من القيود المذهبية والفروق الدينية التى كثيراً ما مزقت الوحدة الوطنية والرابطة القومية . وطالما تمنت مى أن (٣) « يهدأ يوماً ثائر العواطف المتطرفة ، وتتوازن قوى الانصاف فيرتفع المرء بادراكه إلى أفق يشرف منه على جميع النزعات الانسانية ، وتنعى على الناس أن يسموا ما عند غيرهم تعصباً ويسموا ما عندهم غيرة ونخوة وحمية ، والحق أنه تعصب فى الحالين ، ومماثلة عند الطرفين ، ولكن الناس يغالط بعضهم بعضا .

وتنتظر مى اليوم الذى ينسى الناس فيه اختلافات المذاهب ، وتتساءل متى يقولون مع الشاعر

هذى المذاهب كلها دين الهدى كأشعة الشمس افترقن على مدى
والملتقى فى مصدر الأنوار (٤)

(١) سورة الحجرات آية ١٣ (٢) بين الجزر والمد ص ٣٦
(٣) باحثة البادية ص ٤٠ (٤) باحثة البادية ص ٤١ والشعر لخليل بك مطران

Digitized by Birzeit University Library

مي واللغة العربية

كانت مي بارعة في بضع لغات أوربية براعة شهد لها المتصلون بها والسامعون لها والقارئون لما كتبت في هذه اللغات.

وكان ديوانها الفرنسي « زهرات حلم » أول ما ظهر من آثارها في الفرنسية، أخرجته وهي في ميعة صباها ونضرة شبابها ففيه كثير من حرارة الشباب وعواطفه وآماله العريضة الواسعة، وفيه تأنق في صوغ العبارة الفرنسية صوغاً لا يقل عن تأنق الفرنسيين أنفسهم.

نجحت مي في ديوانها، واطمأنت على قدرتها في الكتابة بالفرنسية فظلت بعد ذلك تنشد المقطعات والقصائد والأناشيد، ولقد أشرنا إلى النشيد الذي صنعته للطيار الفرنسي فيدرين ونشرته صحف باريس الكبرى.

وحدث في عام سنة ١٩١٣ أن دعيت مي لتلقي خطبة جبران خليل جبران في تكريم الشاعر خليل مطران فألقتها وعقبت عليها بخطبة من كلامها كان لها في النفوس أجمل وقع، فزادت حفاوة الحاضرين بها من حماستها وشجعها ذلك على المضي في دراسة العربية.

واتصلت مي في ذلك الحين بالأستاذ أنطون الجميل « بك » وكان يصدر مجلته « الزهور » فكتبت لها بعض المقالات التي رحبت بها المجلة وفسحت لها صدرها، ومن هذه المقالات ذكرى بعلبك، والغني، ودمعة الروح، وكيف نقيس الزمان.

وفي سنة ١٩١٦ بدأت مي تنشر سلسلة من الابحاث الانتقادية الرائعة عن باحثة البادية المرحومة ملك حفني ناصف كريمة العالم اللغوي الأديب الشاعر المرحوم حفني بك ناصف، فلقيت هذه الفصول الممتعة ارتياحاً من القراء مكن لها في شهرتها الأدبية. وأخذ نجمها منذ ذلك الحين يتألق في سماء الكتابة العربية.

على أنها فيما بين عامي ١٩١٢، ١٩٢٠ اعتلت المنابر خطيبة فصيحة تارة على منابر لبنان وأخرى على منابر مصر، وكان لخطبها نصيب طيب من مواقفها الخطابية، فزادتها هذه المواقف حباً للغة العربية، ولعلها كانت تجد من اعجاب السامعين بها وثنائهم عليها ما يشجعها على المضي في الخطابة بالعربية - وسنعود إلى موضوع مي الخطيبة بعد قليل.

وكانت مي بعد اتجاهها وتحولها إلى العربية محبة لها كل الحب، شاغلة نفسها بمسائلها ومشكلاتها ومقترحة وسائل لاصلاحها وجعلها متمشية مع مقتضيات العصر وتطور الزمان

Digitized by Birzeit University Library

ولها مقال يدل على دراسة عميقة واستيعاب لحضارات الأمم عامة وحضارة العرب خاصة عنوانه « حياة اللغات وموتها ولماذا تبقى العربية حية » تناولت فيه موضوع اللغة والحضارة ، وتعرضت لحضارات اليونان والرومان والعرب بكلام يدل على اطلاع واسع وأثبتت فضل العرب على الانسانية مؤيدة كلامها بأمثلة من واقع التاريخ ومن صحيح الوقائع . وذكرت أن اللغتين اليونانية واللاتينية عدتا فى صف اللغات الميتة منذ سقوط مدنيتيهما ، وأن العربية احتفظت بحياتها بعد زوال مدنية العرب بسبعة قرون ، وردت ذلك إلى القرآن الذى كان باعثاً على تكوين المدنية العربية والذى ما زال حافظاً لها وللغة العربية إلى اليوم (١)

لقد أخذت مى ببلاغة القرآن وسحرتها فصاحته ، والقرآن هو أعلى غرار للسان العربى المبين ، لذلك تجدها فى معرض الكلام على اللغة العربية تبدى إعجابها بفصاحة القرآن ، وتعزو استقامة ألفاظ المسلمين وجمال منطوقهم ونظام أسلوبهم الكتابى إلى استظهارهم آى الكتاب صغاراً واستشهادهم بها كباراً(٢) .

وكان يعجبها من باحثة البادية ومن أقلية لبيبة من الكتاب استعمال الآية القرآنية عند الحاجة فى أسلوب خاص ، أو محاولة التسامى إلى استعمال جمل ذات تفصيل قرآنى وموسيقى قرآنية(٣)

ولقد شغلت مى حيناً بالمجمع اللغوى ، القديم الذى كان ينعقد فى دار الكتب المصرية بدعوة من مديرها الأستاذ أحمد لطفى السيد ، وكأنها كانت متابعة لجلساته . فلما شغل الأستاذ لطفى السيد بالسياسة وانضم الى الوفد المصرى عطلت جلسات هذا المجمع . فعز على مى ذلك التعطل وحثت الأعضاء على أن يجتمعوا فى منزل واحد منهم أو فى مكتبة أحمد زكى باشا ، ولامتهم على أن يتركوا مشروعاً جليلا كهذا يغرق فى الماء أو يطير فى الهواء كأكثر مشروعاتنا الشرقية

ولقد أثارت كلمة مى الأولى عن المجمع اللغوى موضوعاً للمناقشة على صفحات جريدة « الايجبشان ميل » ، وبدا من هذه الجريدة — أو بعبارة أصح من كاتب فيها — ما أثار غضبة مى ، ومى إذا غضبت غضبة مضرية لم تهتك حجاب الشمس أو تقطر الدما كما قال الشاعر العربى قبلها . . . ولكنها هتكت أستار الذين تهكموا من مهمة المجمع لوضع أسماء عربية للمسميات الحديثة

فى كانت تميل إلى فكرة استعمال ألفاظ عربية بدلا من استعمال كلمات افرنجية ليست من لغة العرب ولا من أوزانها وصقلها فى قليل أو كثير ، وتدافع مى عن رأيها هذا بقولها [لماذا لا يجوز للمجمع اللغوى ولكل كاتب عربى أن يؤثر استعمال الفاظ عربية دون التعبيرات الافرنجية ؟ أليست الحال كذلك عند جميع الشعوب ؟] وتؤاخذ الجريدة الانجليزية على موقفها التهكمى من المجمع اللغوى قائلة [ألا تذكر الاجبشان ميل أن الانجليز أنفسهم يفضلون الكلمة السكسونية الأصل على الكلمة اللاتينية ، وأن كبار كتابهم إذا وجدوا أمامهم كلمتين اثنتين تؤديان المعنى تماماً

(١) بين الجزر والمد ص ٣٥ و٣٦ (٢) باحثة البادية ص ٦٥ (٣) الباحثة ص ٦٥

Digitized by Birzeit University Library

إحداها سكسونية والأخرى لاتينية سارعوا إلى استعمال الكلمة الأولى لأنهم يرونها أفصح وأبلغ، فلماذا ينكر علينا ما هو فى نظرهم عين البلاغة وكل الحق][1]

والحق أن ميا كانت بليغة فى دفاعها هذا ، وكان الحق كله فى جانبها والحجة بين يديها ، وكأنها كانت فى دفاعها تنطق بما قاله حافظ ابراهيم على لسان اللغة العربية :

وسعت كتاب الله لفظاً وغاية ... وما ضقت عن آى به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات

ولقد بلغ من حب مى للعربية وتفكيرها فى النهوض بها إلى ما يساير الزمن السيار والفلك الدوار أنها كانت تهتم اهتماماً عظيما بالمجامع العلمية العربية

وهذه المجامع لم يكن لها بالطبع صبغة العلوم Science كمجمع تقدم العلوم البريطانى مثلا ، ولكنها سميت بالمجامع العلمية — كمجمع بيروت العلمى أو كالمجمع العلمى بدمشق — على الطريقة القديمة التى تسمى كل متخرج فى الأزهر أو فى القضاء الشرعى عالماً .

رأت مى بعض آثار المجمع اللغوى القديم فأحبته ، ويظهر أنها كانت معنية كل العناية بما يدور فيه من مناقشات أو بما يجد من مصطلحاته ، ولقد أثنت على ثبت بمصطلحات علوم الفلسفة الحديثة وضعه المرحوم أمين بك واصف أحد أعضائه [2]

وفى سنة ١٩١٩ فجر الحركة القومية والنهضة المصرية اعترضت أشعة هذا الفجر المضىء خيوط من الظلام حاكها جماعة من الذين يرون أن اللغة العربية صعبة التعلم ، وأن العامية أصلح للتعبير وأقدر على أداء مهمة التخاطب والكتابة من العربية . وكان اسبيرو بك أحد الذين حملوا معاول الهدم فى أيديهم . . .

فقامت مى وغضبت غضبة مضرية ثانية ، وقالت فى صوت قوى تلوح فى نبراته القوة والاعتزاز بالماضى [الاصلاح ليس الهدم دواماً . بل هو فى الغالب تبديل وصقل وتكييف . إذ ليس فى صالح الأمة إنكار الماضى الزاخر بالمجد الأدبى والحكمة] وقالت بعد كلام [أما نبذها — تعنى العربية — والاستعاضة عنها باللغة العامية فاعتراف بالعجز والخذلان . لأن اللغة تنتعش بانتعاش الأمة وتجمد بجمودها [3]]

ولقد كانت مى فى دفاعها عن اللغة العربية هذه المرة اكثر قدرة وأوضح حجة من المرة السابقة ، وأظنها كانت مدربها داهية . . . ومدافعة قوية ، فالأدلة عندها حاضرة ، والأمثلة لديها معدة مهيأة وسخريتها الرقيقة الناعمة تلطف من حدة النقاش ، ولذعة الجدال . فهى تقول [الشعب يقول « تلتوار » و « ترمبيل » و « سمس » و « سجر » و « ماراتزمو » . أيكون

(١) بين الجزر والمد ص ٤٠ (٢) بين الجزر والمد ص ٤٥ (٣) بين الجزر والمد ص ٥٢

Digitized by Birzeit University Library

إنعاش اللغة بمثل هذه الألفاظ التى تعد بالمئات ؟ أتجديد هذا وترقية ؟ أم هو مسخ وتشويه] (١)

كانت مى ترى فى العامية خطراً على الفصحى ، ولم تأذن للاولى أن تدخل حرم الثانية وهو مقدس . ولم تجز مع الجارين فى سبيل مناصرة العامية . ولم تحرم مي استعمال العامية فى الشوارع وفى غيرها مما يسهل معه التخاطب بها ، ولكنها حرمت تسجيلها فى اللغة الراقية خشية أن تفسد عليها جمالها وتهذيبها. ومن هنا نرى الذوق اللغوى عند مى سليما مهذباً . ولم تقتصر سلامته وتهذيبه على ما كانت تكتبه بل ظهر ذلك فى حديثها الذى دل على لطف نفسها وسلامة فكرها .

ولا يفهمن القارىء من هذا الموقف النبيل الذى وقفته مى من اللغة العربية واللهجة العامية أنها كانت متزمتة متصلبة ، أو أنها كانت « شيخة » أكثر من الشيوخ أنفسهم . . . أو أنها كانت متطرفة إلى أبلغ غايات التطرف ، ولكنها كانت قواماً فى رأيها مع احترام القواعد والأصول ، ويظهر اعتدالها فى قولها [وما نطمع فيه ويعمل له التعليم والتهذيب هو رفع العامة إلى فهم أوسع وأحذق ، والنزول ببعض الخاصة إلى ميدان أسهل ليتم فى اللغة ما هو تام بين المراتب من التمازج] (٢)

ولا شك أن مي قد عانت — كما يعانى كل متعلم — صعوبة النحو العربى ، وأدركت ما فيه من خلاف فى المذاهب بين البصريين والكوفيين ، والمتقدمين والمتأخرين . . . وأدركت كذلك الزمن الطويل الذى يضيع فى فهم مسائل النحو المعقدة وموضوعاته الصعبة ، وهى حين تشير إلى صعوبة العربية لا تنسى أن تشير إلى صعوبة النطق فى الانجليزية ، وبلبلة الأبجدية الألمانية ، وصعوبة الكتابة الفرنسية صعوبة لا شبه لها فى اللغة العربية (٣)

ولهذه الصعوبة التى لا قتها « مى » فى نحو العربية أثر فى اقتراحها على المجمع اللغوى القديم تلخيص القواعد فى كتاب واف على اختصاره على نحو ما يفعل الافرنج ، حتى يتاح لمتعلمها الالمام بها وصحة الكتابة بها فى زمن قليل (٤)

ولعل مياً — وقد مضى على اقتراحها أكثر من عشرين عاماً — كانت أول المطالبين بتيسير قواعد اللغة العربية ، فالله يجزيها عن أساتذة اللغة وتلاميذهم وعن اللغة نفسها أحسن الجزاء

(١) بين الجزر والمد ص ٥٦ (٢) المصدر السابق ص ٥٧ (٣) المصدر نفسه (٤) المصدر السابق ص ٥٨

Digitized by Birzeit University Library

أسلوب مي

لا شك أن ميّاً تميزت بأسلوب خاص لها طابعه وله ميزاته التي جعلته فريداً في الاساليب .

ولكل كاتب بالطبع طريقته التي يعرف بها وتعرف به ، وخاصة زعماء الكتابة الذين يحبون أن يكونوا متبوعين لا تابعين ، ومقلَّدين لا مقلِّدين .

ولقد استطاعت مي أن تخلق لها طريقة خاصة بها في الكتابة ، وأن تنشىء لها طرازاً من الاسلوب استقل بشخصيتها ، ولم يشركها فيه أحد غيرها ، فاذا تليت عليك فقرة من فقراتها أو جملة من جملها قلت على الفور : هذا أسلوب مي !

ويخطىء الذين يظنون أن ميّاً كانت تحاكي كتاب المهجر محاكاة مطلقة فيما ذهبوا إليه من أساليب القول ، فان طبيعتها المحافظة دائماً كانت تأبى عليها أن تنساق إلى المحاكاة المطلقة لجماعة كانت تراهم يعابثون اللغة بحرية تثير غضبات المحافظين (١)

ولا شك أن لكتاب المهجر بعض الاثر في أسلوب مي — كما حدثني بذلك معالي مصطفى باشا عبد الرازق ، وكما يبدو لمن يقرؤها ويقرؤهم . ولكنها لم تكن مقلدة لهم بما يعدم شخصيتها التي كانت تحرص دائماً على استقلالها وظهورها .

ولا شك أيضاً — كما حدثني معالي مصطفى باشا عبد الرازق في جلسة ثانية — أن ميّاً تأثرت بطريقة الاستاذ أحمد لطفي السيد « باشا » التي نزع إليها كثير من الكتاب في ذلك الحين لاستوائها واستقامتها ونصوع الفكرة فيها .

واتخذت مي من الطريقتين طريقة خاصة بها ، امتازت بانتقاء اللفظ الجميل الوقع على السمع ، كما امتازت بالتعبير السهل الذي لا يعرف التعقيد ولا يعرفه التعقيد ، وبالوضوح الذي لا يجنح إلى خيال بعيد والبعد عن السبح في الاخفاء والتعمية التي تظهر عند بعض الكتاب .

وخليق بك مطران معجب بطريقة مي في نثرها ، وهو يسميها الطريقة الاحتفالية لأن ميّاً تحتفل فيها بالالفاظ والعبارات وتعنى بتنميقها وتحليتها .

ومع عناية مي بأسلوبها ، واهتمامها بصقله وتهذيبه ، وحرصها على اختيار اللفظة الملائمة والكلمة المناسبة ، ومع غرامها بالتأنق في الاسلوب كما تتأنق العروس في ثيابها . ومع اعتمادها على رقة أسلوبها ورشاقة تعبيرها في استمالة قرائها .. مع ذلك كله لم تهمل جانب المعنى ، ولم تغفل أهمية الفكرة . فمعانيها على قدر ألفاظها ، وفكرتها على قدر كلمتها فلا طغيان في جانب على جانب

(١) من خطبتها في كتاب اليوبيل الذهبي للمقتطف ص ٦

Digitized by Birzeit University Library

ولا اختلال فى النسبة بينهما ، فألفاظها ومعانيها يزين بعضهما بعضاً ، وكأن الشاعر عنى أسلوبها بقوله :

تزين معـــانيه ألفاظه وألفاظه زائنات المعانى

* * *

ومي حين تكتب تكتب بعقلها وقلبها ، ولهذا تجد أسلوبها أثراً من آثار العقل الرزين ، ونتيجة من نتائج العاطفة الجائشة . ويبدو هذا جلياً فى خطبها التى تعدها بالقلم وتلقيها باللسان . وكثيراً ما نجحت مي فى خطبها لأنها تصل إلى عقول السامعين وتلمس قلوبهم . وسنعرض لذلك حينما نتحدث عن مي الخطيبة .

وفى أسلوب مي النثرى نغمات من الموسيقى المتجانسة المتساوقة ، فلا تحس وأنت تقرؤها نبواً أو « نشازاً » ، وكأن كلماتها فصلت تفصيلا ورتلت ترتيلا . فهى شعر إلا أن القوافى لم تقيده ، والأوزان لم تغله .

ويبدو هذا الجمال الأسلوبى واضحاً عند مي حينما تكتب فى موضوع يمت إلى العاطفة أو يتصل بالوجدان . فهنا ترق مي ويرق معها أسلوبها . (ونشيد نهر الصفا) هو أكثر الأمثلة صلاحاً للتدليل على ما نقول ، وكذلك مقالها « الساعة المفقودة » و « يا سيدة البحار » و « دمعة على المغرد الصامت »[1]

ولو أن فى المقام انفساحاً ، وفى هذا المجال الضيق المحدود بغلاء الورق اتساعاً لنشرنا بعض ما سما من أساليب مي فى كتبها أو خطبها أو مقالاتها .

لقد كانت مي تكتب متأنقة محتفلة ، ولم تكتب عند الفكرة تخطر عليها أو الرأى تذهب اليه ، ولكنها كانت تكتب حين يطاوعها الاسلوب وتنقاد لها الطريقة ، وتواتيها اللفظة . ولهذا شاع فى أسلوبها الجمال ، وظهر فى كتابتها نوع من الخفة واللطف قل أن يتاح لكاتب يعتمد على العقل فيما يكتبه .

ومي فى احتفالها بأسلوبها تذكرنا بالشاعر الجاهلى زهير بن أبي سلمى فى تنقيحه لشعره ومراجعته له . ولم يطغ اللفظ والاهتمام على مي الكاتبة فينسيها قيمة المعنى الذى تريد الكتابة فيه وهنا يحضرنا — على طريق المضادة — كتاب المقامات الذين أولعوا باللفظ وعنوا بالكلمة فجاءت كتابتهم ضئيلة المعانى ، وزادها التعمل غرابة أو سقما فى الألفاظ .

ولم تكن مي ترى الكتابة أمراً هيناً ميسوراً ، ولكنها تراها أكثر الفنون دقة وعسراً[2] ، وترى أن اكتشاف الكاتب الذى عنده شيء يقوله للاسلوب الذى يعبر به أصعب من اكتشاف

(١) ظلمات وأشعة (٢) باحثة البادية ص ٥٨

Digitized by Birzeit University Library

القطب . لأن نقل حركات النفس الخفيفة اللطيفة بوساطة الكلمات البشرية الكثيفة ليس مما يسهل عمله[1] .

ولا خلاف فى أن ميا تأثرت فى أسلوبها بالطريقة الأوربية وخاصة فيما يسمى بالشعر المنثور Blank Verse .

وذلك واضح فى كل ما كتبت ، وخاصة فى كتابها « ظلمات وأشعة » ويقل استعمالها لهذه الطريقة حينما تبحث موضوعاً أدبياً ، أو تنقد ، أو تتعرض لحوادث التاريخ ومدارج الحضارات .

لم يكن أسلوب مى الطريف الجديد إلا بدعة فى الأساليب العربية ، فلا تجد فيه نثر الجاهلية وسجع كهانها . . . ولا تصادف فيه أثراً من طريقة عبد الحميد الكاتب وتلاميذه ، ولا ترى فيه طريقة ابن العميد والقاضى الفاضل ومن كان بينهما ، ولا تجد فيه ركاكة كالتى شاعت فى العصر التركى ، ولا ترى فيه تطرف السوريين فى أمريكا وإباحتهم التى يعتبرها المحافظون من اللغويين تهجماً على قداسة اللغة العربية .

نعم لا ترى فى أسلوب مى واحداً من هؤلاء ، ولكنك تراهم فيه جميعاً .

أما أسلوبها حين تتناول بحثاً أدبياً ، أو موضوعاً اجتماعياً فقد كان فى غاية من السلاسة والسهولة والوضوح . فالفكرة عندها واضحة ظاهرة ، لا تتصيدها من وراء الغيوم أو من خلف الضباب ، والعبارة عندها سهلة لا تعقيد فيها ولا إبهام ، واللفظ عندها سائغ حلو الوقع على الآذان ، فاذا قرأتها لا تمسك نفسك من الاعجاب بها ، والاقتناع بمذهبها .

وفى عبارات « مى » حين تكتب أو حين تخطب موسيقى تستسيغها الأسماع ، ولقد كانت تجيد العزف على بعض الآلات الموسيقية ، فلا غرو إذا راعت فى أسلوبها الترنيم والتنغيم .

ولها ذوق جميل فى اختيار اللفظ الجميل ووضعه إلى ملائمه ومشاكله كما يصنع اللآل فى الأحجار الكريمة والجواهر الثمينة يضم منها ما تشاكل ويجمع ما تماثل ويؤلف من ذلك عقداً جميلا .

وما عرف عن مى أنها أغربت فى استعمال لفظة كما يصنع المتحذلقون من الكتاب ليدلوا على الناس بمبلغ علمهم ومذخور كلامهم ، ولكن ميا كانت تتحرى اختيار بعض ألفاظ قليلة الاستعمال لتخلع عليها الحياة من جديد ، ولتديرها على الألسنة والأقلام عوداً على بدء . وجهادها فى ذلك معروف مشكور . وقد تعدل عن لفظة مألوفة أو صيغة من الاسم والفعل معروفة إلى لفظة أخرى وصيغة ثانية أقلّ دوراناً على الألسنة وشيوعاً على الأقلام أو أكثر إمعاناً فى العامية

فهى تقول الرياح تعتول[2] بدل تعول ، وتقول « حولك الأقوياء يتكاخون » بدلا من يكاخون ، وتقول البرنيطة بدلا من القبعة

(١) باحثة البادية ص ٥٨ (٢) ظلمات وأشعة ص ٩٠

Digitized by Birzeit University Library

وكان لها غرام باستعمال صيغ المبالغة من اسم الفاعل ، ولعلها بذلك تقصد إلى التهويل والمبالغة والتأثير فى نفس سامعها أو قارئها ، فالجرمانى عنـــدها « مبطاش »[١] لا باطش ، واللاهث والهاتف عندها سمّاك وهتاف بصيغة فعال للمبالغة[٢] ، وتقول عن نفسها « أنا التى ترانى طروبة طيارة [٣] » بدلا من طائرة

كما أغرمت باستعمال صيغة « أفعل » دلالة على الوصف لا على التفضيل ولعل هذه الصيغة كانت تقع من نفسها موقعاً حسناً فقد آثرتها وأدارتها على كلامها . فهى تقول « يتركه جثة فى قبضة الموت الأغبر »[٤] والصبح « الأنور » والنادى الأسنى[٥] .

ولقد تأثرت ميّ فى بعض مقالاتها على العموم وخطبها على الخصوص ببعض النـــداءات الوطنيـة والهتافات القوميـة التى كانت تدور على كل لسان ، ويهتف بها كل فم . فترى ميا حين تكتب أو حين تخطب تستعمل أشباه هذه العبـارات « تحيا مصر » « يحيـا الشرق » « لتحيوا جميعاً » « فلتعش مصر حرة مستقلة »[٦] « يحيا الشبان »

ولا نعلم أن كاتباً فى العصر الحديث ردد هذه النداءات فى كتبه وخطبه كما رددتها « مى » ففى كل محاضرة لها هتاف ، ولكل خطبة لها نداء . فكما كانت كتابتها فى الأعم الغالب تسبيحاً باسم الشرق وجلاله ، كذلك كانت هتافاتها نشيداً للشرق فى آلامه وآماله .

ومن الغريب أن ميا المحافظة المعتدلة الغيور على العربية ، الخائفة عليها من سيل العاميـــة الجارف ، المدافعة عن المجمع اللغوى القديم ومهمته . الذاهبة إلى وضع أسماء لمصطلحات العلوم والفنون على طريق النحت والاشتقاق والتعريب ، المعالجة مسائل اللغة ووسائل إصلاحهـا فى كتبها وخطبها ومقالاتها وأحاديثها — من الغريب أن ميا هذه كانت تستعمل ألفاظاً افرنجية لم تجر على وزن أو بناء عربى . فتستعمل الهارمونى "Harmonie" والسوناتا والكانتاتا[٧]

ولعلها لم تهتد إلى اصطلاح عربى لأمثال هذه الألفاظ فآثرت — كارهة — استعمالها إلى أن يهيء الله من يدل عليها . ودليلنا على ذلك أنها بعد سنة ١٩٢٣ أخذت تضـــع المصطلح العربى الجديد . وبعد قوسين بعده تضع اللفظ الافرنجى . فتقول تساوق الألحان "Harmonie" والنغم "Melodie" [٨] ، وأحياناً كانت تضع اللفظ الافرنجى مكتوباً بحروف عربيـــة ثم تضع بعده المصطلح العربى فتقول : الشعر الليريكى أو الغنائى ، والشعر الديدكتيكى أو التهذيبى ، والدراماتيكى أى المفجع ، والأبيكى أى القصصى الحماسى[٩] .

---

(١) ظلمات وأشعة ص ٣٣ (٢) ظلمات ص ٢٦ (٣) ظلمات (٤) كلمات واشارات ص ٦٨ (٥) ظلمات وأشعة ص ١١٨ (٦) كلمات واشارات ص ٤ ، ١٢ وبين الجزر والمد ص ١ (٧) كلمات واشارات ص ٦٣ (٨) بين الجزر والمد ص ١٢٧ (٩) بين الجزر والمد ص ١٥٣

Digitized by Birzeit University Library

التهكم عند مي

وما دمنا في سبيل الحديث عن أسلوب مي فلا بأس من الاشارة إلى طريقتها في المهاجمة والتهكم والنقد.

كانت لمي بعض نظرات وآراء في الاصلاح الاجتماعي، وخاصة فيما يتصل بالمرأة، واللغة، والشرق. وكان لابد لها لتوجيه اصلاحها في الطريق الذي يضمن له النجاح أن تهاجم عادة سخيفة أو تنحى باللائمة على أمر غير مقبول، أو تنتقد ما هو موضع للانتقاد.

ولكن ميا امرأة قبل أن تكون كاتبة، وفتاة رقيقة قبل أن تكون ناقدة عنيفة. ولهذا كان نقدها رقيقاً. وكان لومها وعتابها لطيفاً رفيقاً، وكان تهكمها لا يجرح شعوراً ولا يؤذي احساسا ولا يمس كرامة. وكانت سخريتها — إذا سخرت — هي ضرورة المغضى الكريم، لا عمل الشامت اللئيم.

رأت انتشار كلمة «فلان ومدامته»، «فغمزت» مستعملها بقولها [لا يخفى على ذوي «المدامات» وغيرهم][1].

وسمعت رجلا عربياً يزعم اللغة العربية ثقيلة على لسانه، وأن بعض حروف الحلق فيها كالحاء والخاء يمزق الحلق ويثقل على السمع! فعز ذلك الانسلاخ البغيض على مي وكتبت مقالا عنوانه «تكلموا لغتكم»، وظلت تلذع هذا العربي بسخريتها العفيفة قائلة [انه من الطراز الحديث المكرر ثلاثا، فتح فاه فتحة أنيقة تليق بالقرن العشرين .... وطفق حضرته يتكلم الفرنساوية جاعلا الراء منها غينا غاء][2]

وتعتب على المجمع اللغوي القديم لركود طرأ على حياته ونشاطه فتقول (وصلنا الى المجمع اللغوي الذي تتخاصم صحف العاصمة لأجله وهو في غيبوبة الأحلام)[3]

وحدث أن وقعت ثلاث سرقات في يوم واحد من أيام القاهرة، وكانت هذه الحوادث موضوعاً للحديث في الصحف وعلى ألسنة الناس، فتناولت مي هذه الحوادث بنقد أليم رفيق لرجال الشرطة قائلة[4]: [والبوليس؟ لا توقظوه! انه ناثم بالسلامة كطفل بريء...]

فنقدات مي كانت كالشوكة اللينة تخز ولكنها لا تدمي....

---

(١) بين الجزر والمد ص ٦٢ (٢) بين الجزر والمد ص ٨٧
(٣) بين الجزر والمد ص ٥٥ (٤) سوانح فتاة ص ٦٠

Digitized by Birzeit University Library

مى الخطيبة والمحاضرة

لقد عرفت المنابر ميا خطيبة عربيـة فصيحة ، كما عرفتها الأندية الأدبية ومعاهد الدرس وقاعات المحاضرات محاضرة من طراز رفيع .

ولقد كنا نسمع هذا البيت الجميل الرائع :

ولو ان مشتاقاً تكلف فوق ما في وسعه لسعى إليـــك المنبر

فنرد هـذا الضرب من الكلام إلى الاغراق فى المبالغـة ، والتغالى فى المدح . . ولـكن ميا أكدت لنا فى خلال حياتها الأدبية أن المنابر قد تشتاق أصحابها ، وأن المواقف الخطابية كانت تقبل عليها ساعية ، وتميل إليها داعية . . .

فتارة تراها واقفة تحت ظلال الأرز ، وفى ظهور الشوير بلبنان تشكر فى بيان جميل أولئك السادة الذين اجتمعوا لتكريمها ، واحتفلوا هناك بظهورها بينهم [١] . وتعد مى هذا التكريم منهم غير منحصر فى فردها أو مختص بشخصها ولـكنه موجه إلى تشجيع الفتاة الشرقية عموماً . ولقد كان تكريم مى فى سنة ١٩١١ دليلا على اعتراف وطنها بالتماع الأشعة الأولى من نجمها . . فانها كانت فى ذلك الحين شادية . . .

ويتألق نجم مى فى الخطابة رويداً رويدا فتقف فى مساء ١٥ أغسطس سنة ١٩١٢ بقرية (بكفيا) فى لبنان ، وتخطب احتفالا يوم عيد العذراء فتقف معددة مآثر الشرق ، وتقول فى افتخار واعتزاز [شرقنا جميل ، ولـكن الروح الشرقية التى تحييه أجمل منه ، ومياه الشرق عذبة ، وأعذب منها العواطف الغزيرة المتدفقة فى صدر [٢] الشرق]

وتنقلب مى فى ذلك الحفل قيثارة تتردد على أوتارها ألحان من جمال الشرق ، وأنغام من وحى عظمته وجلاله ، ولا شك أن « ميا » أطربت سامعيها تلك الليلة . لأنهـا كانت تغنى على أوتار قلوبهم . .

وتسوق الأقدار السعيدة ميا الى مصر بعد ذلك فى سنـة ١٩١٢ . فلا يكاد يستقر بهـا المقام حتى تشتهر بالخطابة وتعرف بالالقاء ، وتود منابر مصر أن تسمعها كما سمعتها منابر لبنان . .

وهنا أتيحت لها الفرصة ، وهيئت لها النهزة ، فقد أنعم على الشاعر خليل [٣] مطران بالوسام المجيدى الثالث ، وأقيم لتكريمه حفل أدبى جليل فى دار الجامعة المصرية القديمة ، ولقـد شرف

(١) كلمات وأشارات ص ١ و ٢ و ٣ (٢) كلمات وأشارات ص ٦ (٣) كلمات وأشارات ص ١٣

Digitized by Birzeit University Library

خديوى مصر « عباس حلمى باشا » الحفل برعايته ، كما شرفه شقيقه سمو الأمير الجليل محمد على بمشهده ورياسته .

وهنا يبعث جبران خليل جبران من نيويورك بكلمة تتلى فى الحفل ، فيقع اختيار اللجنة على مى لإلقائها ، فتلقيها وتعقب عليها بخطاب بليغ ، شغل الناس بالحديث عنها أكثر مما شغلهم بالحديث عن المحتفل به (١) ولم يكن موقفها فى تكريم مطران أول مواقفها الخطابية على الأطلاق — كما أشار إلى ذلك بعض مؤبنيها — ولكنها وقفت قبل ذلك فى لبنان وقفات مشرفات ، كما ذكرنا قبل ذلك بقليل .

وسعت المنابر بعد ذلك النجاح العظيم إلى مى تطلب منها الكلام ... فوقفت سنة ١٩١٤ فى الثالث والعشرين من شهر ابريل تحاضر إذا شئت وتخطب إذا شئت فى موضوع المرأة والتمدن ، وكان منبرها تلك الليلة فى « النادى الشرقى » ، وكان سامعوها جمعاً كبيراً من الرجال والشبان ، والسيدات والآنسات .

وقفت مى تلك الليلة تسرد تاريخ المرأة الطويل ، فأثنت على السيد المسيح الذى كان أول من عطف عليها وأسمعها كلمات الأشفاق والغفران .. ولم تنس — كعادتها فى الأنصاف وشأنها فى السماحة — أن تنصف النبى العربى محمداً — عليه السلام — لأنه رفع شأنها ، وسواها بالرجل فى جميع الحقوق والواجبات — إلا فى الشهادة والميراث — وحرّم وأد البنات (٢)

(موضوعات الخطابة عند مى)

لما اشتهرت مى وأخذ نجمها الأدبى فى الصعود كان لها بحكم ذلك الاشتهار علاقات وصلات مع كبار الرجال من أهل الفضل والحسب ، والعلم والأدب ، وكان لها علاقات وصلات مع جماعات الخير والبر ، وجمعيات المعروف والاحسان .

ولهذا كنت ترى ميا الخطيبة إما مكرّمة لأديب كما صنعت مع خليل مطران « بك » الشاعر وإما محتفية بمؤسسة خدمت العلم والأدب كما فعلت سنة ١٩١٦ فى تكريم « مطبعة المعارف » لمرور خمسة وعشرين عاماً على انشائها (٣) . وإما شاكرة لمجهود بذله عالم فى سبيل العلم كما صنعت فى تكريم الكونت دى جلارزا المستشرق الأسبانى وأستاذ الفلسفة فى الجامعة المصرية (٤)

ويدخل فى هذا النوع من التكريم خطبُ التأبين التى كانت تجيد القاءها ، فى نغم يثير أحزان السامعين ، وما تأبين الأموات إلا نوع من تكريمهم بعد وفاتهم وتقديرهم بعد انقطاع ما بينهم وبين الحياة من أسباب ...

---

(١) من خطبة الدكتور طه حسين بك فى حفلة تأبين مى بدار الاتحاد النسائى (٢) كلمات واشارات مى ٣٤ (٣) كلمات واشارات (٤) كان تكريمه فى سنة ١٩١٧ فى فندق شبرد برآسة البرنس حيدر فاضل

Digitized by Birzeit University Library

ولا يفهمن من ذلك أن ميا كانت كالنائحة المستأجرة تبكي على كل ميت أو تنوح على كل راحل ، وتعدد مآثر الذاهبين . . . لا ! لم تكن مي لترخص دموعها إلى حد الابتذال . ولكنها لم تقف خطيبة باكية ، ونائحة مؤبنة إلا حين تشعر هي بالخطب ، أو تحس هي بثقل المصاب أو ترى هي وجوب التقدير .

وقفت تبكي باحثة البادية — السيدة ملك حفني ناصف — في الحفل الذي أقامته السيدات المصريات برياسة السيدة الجليلة هدى هانم شعراوي في دار الجامعة المصرية سنة ١٩١٩ لمناسبة مرور عام على وفاة الباحثة (١) وكانت خطبتها في تأبين صديقتها نوعاً من الوفاء لها ، ونوعاً من حث السيدات الشرقيات على أن يحتذين حذوها في جهادها للمرأة ، وإخلاصها للغة ، وحبها للوطن .

ووقفت تبكي المرحوم الدكتور يعقوب صروف أحد منشئي مجلة « المقتطف » في الحفل الذي أقيم لتأبينه « بدار الأوبرا الملكية » في ٣٠ مارس سنة ١٩٢٨ (٢) . فكانت كلمتها عدا لمآثر الدكتور صروف ، وتسجيلا لجهاده الطويل الماضي في خدمة العلم والأدب ، وثناء على إكرامه للمرأة في رواياته الثلاث التي ألفها وهي : « فتاة مصر » و « غادة الفيوم » و « أميرة لبنان » ، واعترافاً بتشجيعه لها وفسح المجال في المقتطف لكتاباتها .

وهكذا كانت مي الخطيبة وفية لصديقتها « الباحثة » ، ووفية لأستاذها الدكتور صروف .

وكانت مي تبدو ليلة تأبين صروف في ثوب أسود جعله بياض وجهها ، وحسن قسماتها واعتدال وقفتها ، والشجن المرسل في تسلسل نغماتها واتساق نبراتها . وكان ذلك أول عهدي بمي . . . .

ولقد خطبت مي في الأحسان وحثت عليه ، وكانت في سبيل ذلك لا تألو جهداً ، ولا تدخر وسعاً ، فيوماً تعد خطبة في حفل أقامه نادي الاتحاد السوري لمديد رحيمة كريمة لاغاثة سوريا الجائعة سنة ١٩١٦ ، ويوماً تلقي كلمة في جمعية « ثمرة الاتحاد القبطية » في يوليو سنة ١٩١٦ لمساعدة اليتيمات الفقيرات . ويوماً تلقي خطبة في مدينة طنطا وفي حفل أقامته جمعية الاتحاد والاحسان السورية مساء ١٤ يونيو سنة ١٩١٤ (٣)

ولكل نوع من هذه الخطب عند مي أسلوبه ، وطريقته في الاعداد والالقاء . ففي التكريم ترى اعترافها بقدر المكرمين بادياً في صوتها كما يبدو في كلماتها ، وفي التأبين ترى الحزن العميق يبدو في كل لفظة . ويلوح في كل إشارة ، وفي الاحسان ترى لها كلاماً يلين الصخور القاسية .

(١) كلمات واشارات ص ١٢٦ (٢) مقتطف شهر مايو سنة ١٩٢٨ (٣) كلمات واشارات

Digitized by Birzeit University Library

ويستدر الدموع الرحيمة ، ويجعل الشحيح الضنين يجود بنفسه قبل ماله . ويبدأ الناس بالعطاء قبل أن يبدأوه بسؤاله [١] . . .

وما كان أقوى ميا الخطيبة حين وقفت تحث على مساعدة المنكوبين المحرومين فى سوريا الجائعة [٢]

ولقد كانت مى تطنب فى الخطب حين يوجب المقام الأطناب ، وتوجز عندما يستدعى المجال الإيجاز ، فكانت لفصاحتها وبلاغتها وذكائها وحذقها عليمة بمقتضيات الأحوال ، ولكل مقام عندها مقال . . . .

(مىّ فى محاضراتها)

لم تكن مى فى محاضراتها أقل نجاحاً منها فى خطبها ، فقد كانت تعدّ موضوع المحاضرة إعداداً طيباً ، وتستوفيه بحثاً ودرساً ، وتشبعه معاودة ومراجعة ، وكانت منظمة فى تفكيرها ، مرتبة فى تقسيمها . فلا يتعب السامع فى متابعتها حتى يصل منها إلى النتيجة التى تريده أن يصل اليها . وكان لها من حسن إلقائها ، واستواء وقفتها ووضوح عبارتها معينٌ على فهمها وتقديرها .

ولعل أول محاضراتها العامة كانت تلك التى ألقتها فى الجامعة المصرية سنة ١٩٢١ إجابة لطلب جمعيـــة « فتاة مصر الفتاة » . وكان موضوع المحاضرة جذاباً شائقاً يغرى بالاستماع ويدفع إلى حسن الأصغاء ، وهو « غاية الحياة » . ولقد وفقت مى الى معالجته على ضوء تجاربها واختباراتها وقراءاتها الكثيرة ، ونادت فيها [بأن تكون مجموعة أعمال المرأة غاية جليـــلة يقوم بها النســاء عاليات الجباه تحت أكاليل العزم والجهاد ، وقد اختفت من عيونهن خيالات الخضوع والمسكنة وحلت محلها نظرة من لم تعد عبدة المجتمع ، ولا عبدة الحاجة ولا عبدة الرجل ، ولا عبدة قلبها وهو أعظم جائر مستبد] [٣]

٩٦ وكان كتابها الصغير عن « السيدة وردة اليازجى » فى الأصل محاضرة ألقتها فى جمعية الشابات المسيحيات فى مايو سنة ١٩٢٤ ، وهى دراسة لهذه الشاعرة الأديبة على النحو الذى جرت عليه مى فى دراسة « باحثة البادية » و « عائشة التيمورية »

(١) راجع خطبها الآتية . « فى طنطا » « سوريا الجائعة » « حفلة نهرة الاتحاد » « الدموع » فى كتابها كلمات واشارات (٢) كلمات واشارات ص ٧٢ (٣) غاية الحياة ص ٢١

Digitized by Birzeit University Library

مى الشاعرة

ورأيها فى الشعر العربى

لم تهيء الأقدار ميا الكاتبة الأدبية المحاضرة الخطيبة لتكون شاعرة فى العربية يوضع اسمها بجوار اسم الخنساء وغيرها من شواعر العرب.

ولكن ميا كانت شاعرة فى اللغة الفرنسية، ولها فيها ديوانها الأول زهرات حلم "Fleurs de Rêve" الذى طبعته ونشرته فى مقتبل شبابها ومطلع صباها.

ولها قصائد كثيرة مخطوطة نظمتها بالفرنسية. وكان فى نيتها طبعها كما فعلت فى ديوانها الأول لولا أن الحظوظ السود عاكستها، والآلام الكثيرة غالبتها، والمنية عاجلتها.

أما الشعر العربى فلم تحاول مى نظمه، ولا يعرف الذين اتصلوا بها أنها شغلت بمعالجته، ولعل صعوبة الوزن والقافية لها فى ذلك دخل كبير، فقد كانت مى شاعرة فى نثرها المصبوب على قوالب الشعر المنثور، ولم ينقص ذلك الشعر المنثور إلا الوزن والقافية ليكون شعراً عربياً جميلاً.

ولم يمنع سكوت مى عن نظم الشعر العربى أن يكون لها فيه رأى بل آراء. فقد قرأت كثيراً منه فى عصوره المختلفة من جاهليه إلى إسلاميه إلى عباسيه إلى حديثه... وقرأت المعلقات مذيلة بشرح ألمانى (١) من وضع المستشرق «وولف» وقرأت كثيراً من شعر المتنبى وأبى العلاء. وكانت تقرأ الشعر الحديث وتعلق على بعضه، وتحتفظ برأيها فى بعضه. ولها نقد للنشيدين القوميين اللذين وضعهما أحمد شوقى بك ومحمد الهراوى (٢) ولقد يعجبها البيت لأحد الشاعرين فتذكره بالثناء، أو لا يعجبها المعنى لواحد منهما فلا ترحم فى نقده. وعدّت من الغلو البديعى الذى هو من ألزم عيوب العربية قول الهراوى:

فيا ابن النيل هز لواء مصرا وهيء فى النجوم لها مقرّا

كما عدّت قوله فى وصف النيل:

يطوف بمائه عرضاً وطولا ويبسط فيضه عاماً فعاما

من القول السائغ الجميل.

(١) بين الجزر والمد ص ٩٩ (٢) المصدر السابق ص ٧٥

Digitized by Birzeit University Library

ونقدها للشعر يدل على سلامة ذوقها ، وجمال روحها ، ولا غرو فقد كانت مى شاعرة فى مرسل نثرها ، ومطلق كلامها ، ولعل المرحوم ولى الدين يكن شاعر الرقة والحنين قد أنصفها بقوله لها من رسالة بعث بها اليها [. . . ولا أقول أنت حمامة الدوح فتلك عجماء وأنت معربة ، ولكنى أقول أنك بليل الشعر ، الصادح فى روض الحياة] (١)

* * *

كانت مى ترى أن الوجهة المعنوية للشعر العربى لم تبرز بوضوح إلى الوقت الذى أبدت فيه رأيها وإن كان يرمى الى التحرر يوماً فيوماً من الأسلوب القديم ، والتعبير القديم والقيود الصناعية التى قيد أنصار القديم أنفسهم بها (٢)

كانت ترى أن شعراء العصر الحديث ميزتهم أمور لم تتح لسابقيهم ، فمشكلات العالم تقلق بالهم ، والمعانى الجميلة فى الطبيعة والمجتمع تنبه مشاعرهم ، وإحساسهم بروح الوجود أكثر من إحساس أسلافهم (٣)

ومى تؤمن الايمان كله بالجماعات الأدبية المنظمة كجماعة للشعر أو رابطة للنثر مثلا ، وترى فى وجود مثل هذه الجماعات تحديداً للاغراض الأدبية التى ظلت مبهمة فى مصر الى وقتما ، وكثيراً ما عابت على مصر — فيما قبل عشرين عاماً خلت — خلوها من جمعية للشعر والنثر (٤)

وأسفت لانحلال « الرابطة الأدبية » فى دمشق التى كان يرأسها خليل بك مردم ، لأن هذه الرابطة على قصر عمرها الذى لم يزد على سبعة شهور كانت تعنى باثنتين فى توجيه الشعر العربى الحديث : جدة معناه ، ومتانة مبناه . مع عنايتها بترجمة روائع الآثار الفرنجية الى اللغة العربية (٥)

وكثيراً ما أثنت مى على « الرابطة القلمية » فى نيويورك ، وكثيراً ما كانت تذكر رئيسها الشاعر جبران خليل جبران بالخير والثناء .

ورأى مى فى جبران حسن جميل ، فترى أنه ان كان فى عصرنا شخصية جامعة مبدعة فشخصية جبران مثالها . وأن هذا الشاعر الفنان يحدث ببيانه الخاص عن حقائق حيوية راسخة (٦) ، وترى أن هذا الشرقى اللبنانى متغلغل بأدبه فى نفسية الشعوب ، متكلم بلسان جميع الشخصيات ، معبر عن جميع الخوالج (٧)

وكانت ترى مى أن الصلة بين شعراء مصر وشعراء العرب المحدثين من غير المصريين ليست

---

(١) سوانح فتاة : تقديم الكتاب (٢) بين الجزر والمد ص ١٤٧ (٣) المصدر السابق (٤) بين الجزر والمد ص ١٤٨ (٥) المصدر نفسه (٦) المقتطف عدد يناير سنة ١٩٢٩ ص ١٣ (٧) المصدر السابق

Digitized by Birzeit University Library

قوية من حيث تفاعل الأفكار، وانما هى متشابهة من حيث الدوافع القومية والمناهج البيانية (١).

والمتنبى وأبو العلاء المعرى عندها أشد شعراء العربية تأثيراً فى الشعر العربى الحديث. أما الأول فمن ناحية المفاخرة (ويدخل فى ذلك المديح) وأما الثانى فمن ناحية النزعة الفلسفية التى يغلب فيها الاستياء (٢).

وكثيراً ما كانت تستشهد بكلامهما. كما كانت تحفظ كثيراً من شعر شوقى وحافظ ومطران.

والى ذلك أشار المرحوم الدكتور يعقوب صروف فى رسالة بعث بها إلى الأمير شكيب أرسلان يصف كتابها «المساواة» قال [.... وقد قرأت كثيراً من الكتب فى اللغات التى تحسنها، الفرنساوية والانكليزية والايطالية، حتى لقد تستشهد فى كلامها معى بأبيات من شكسبير أو بيرون كما تستشهد بالمتنبى والمعرى، وحفظت أيضاً كثيراً من قصائد شوقى والمطران وحافظ] (٣)

وما كانت مى تحب المفاضلة بين شاعر وشاعر سواء أكان ذلك فى القديم أم الحديث، وفى الشرق أم فى الغرب، فهى على حد تعبيرها نعمت فى كل شاعر بما كان عنده أوفى وأعم فغذت به أحد ميولها. فلا وجه عندها للمفاضلة، ولا محل عندها لعقد موازنة. وتظن مى (٤) — وهى على حق فيما تظن — أن كل واحد من هؤلاء الشعراء المختلفين مذاهب ومشارب، وبيئات ومنازل يعطينا صورة عصره وبيئته بل صورة الانسانية فى جميع العصور وجميع البيئات ملونة بلونه متكلمة بصوته

مى والموسيقى

الشعر والموسيقى صنوان، واذا لم تكن مى شاعرة بالأوزان والقوافى فهى شاعرة بطبعها، شاعرة بأحساسها، شاعرة بعواطفها التى سجلتها فى شعرها المنثور الذى سماه الأستاذ خليل بك مطران شراً احتفالياً، ونسميه نحن فى دروس الأدب العربى شراً فنيا.

ولقد كانت مى — كما أخبرنى الأستاذ فؤاد صروف رئيس تحرير المقتطف غير مرة — موسيقية بارعة، وكان لها غرام بالتوقيع والتنغيم، وبارعة فى اللعب على بعض الآلات الموسيقية. وأخبرنى الأستاذ أيضاً أنها لما كانت بسبيل الكتابة فى المقتطف عن «بتهوفن» وسمفونياته،

(١) بين الجزر والمد ص ١٥٧ (٢) المصدر السابق (٣) معجم المطبوعات العربية ليوسف اليان سركيس (٤) بين الجزر والمد

Digitized by Birzeit University Library

كانت توقع هذه السمفونيات بنفسها ليتهيأ لها الجو الصحيح الصادق الذى تستطيع أن تكتب فيه عن ألحان هذا الموسيقى العبقرى العظيم .

ولقد ظهرت روح مى الشرقية ، وحفاظها الذى تكلمنا عنه سابقاً فى معالجتها لموضوع الموسيقى والألحان الذى أحسنت كل الاحسان معالجته ، وأجادت كل الاجادة الكتابة فيه .

ودافعت مى عن الموسيقى الشرقية دفاعا يستحق ترحم الشرق عليها ، ووفاء أهل هذا الفن الجميل لها .

اسمعها تقول فى مقال عنوانه « فى عالم الألحان » : [يعيرنا الغربيون أن ليس فى الموسيقى الشرقية أفكار ولا وصف ولا تصوير ولا تصور ، ولا أوبرا . سبحان الله ؟ وما حاجتنا ياترى نحن ذوى الأعصاب الطروبة الذين يشجينا شدو القصب ، وتنهد النهر ونوح الحمام ، ما حاجتنا إلى اشتباك الألحان وضوضائها ، نحن نتمنى لموسيقانا أن تظل شرقية محضة ، تعبر بأنغامها العميقة الحزينة عن خفايا القلب الشرقى وحنينه ولوعته ، وتلمس نفوسنا بترجيعها البسيط فتهتدى فيها إلى مستودع العواطف الشجية وينبوع العبرات السخينة] (١)

ولا تنكر مى أصالة الموسيقى الأوربية وبناءها على قواعد راسخة من العلم والفن ، ولكنها فى الوقت نفسه لا تنكر بساطة الموسيقى الشرقية وجمالها — ذلك الجمال الذى أوحى إلى «كاميل سان سانس» أن يؤلف لحناً هو مزيج من جملة ألحان مصرية ، ويسميه «تذكارات الاسماعيلية» كما أوحى إليه أيضاً أن يؤلف قطعاً مقتبسة من ألحان فارسية .

ولم يمنع تقدير مى للموسيقى الشرقية وحبها لها من نقدها وإظهار عيوبها حتى يتاح للمصلحين إصلاحها ، والنهوض بها إلى مستوى فنى رفيع . فهى تنتقد الأصوات الشاذة عندنا وكثرتها كثرة ظاهرة ، وتنتقد المغنى حينما يخطىء فى تقسيم أوقات الأنشاد وتوازن الآهات والأدوار .

وتحمد مى فى الموسيقى الشرقية الجديدة التجديد الأخير الذى دخل عليها وهو ضبط الألحان بالعلامات الأفرنجية ، بعد أن كانت — كالشعر القديم — تنتقل بالتواتر والتداول من جيل إلى جيل .

وكثيراً ما تمنت مى أن نعود الموسيقى الشرقية الحديثة إلى ما وصلت إليه من الاتقان المتناهى عند المصريين والأشوريين والعبرانيين بشهادة الآلات التى وجدت منقوشة على آثارهم ، مصورة على جدران معابدهم وهياكلهم (٢) .

(١) بين الجزر والمد ص ١٢١ (٢) بين الجزر والمد

مى والنهضة النسائية

رأيت أن ميا كانت وفية لشرقها ، وفية للغتها ، وظهر وفاؤها للشرق واللغة العربية فى مواقف مختلفات ومظاهر متباينات ، وانها كانت تنتهز الفرصة للحديث عنهما فى كل مناسبة .

فالوفاء فى مى طبيعة فيها وفطرة فطرت عليها .

ولقد كانت مى الفتاة وفية لجنسها النسائى ، فما تركت مناسبة للحديث عن المرأة إلا انتهزتها ولا تركت فرصة للنهوض بالمرأة إلا اختلستها ولها فى سبيل ذلك جهاد مشكور وسعى محمود .

رأت مى السيدة الجليلة هدى هانم شعراوى لأول مرة فى حياتها سنة ١٩١٤ (١) فى قاعة المحاضرات بالجامعة المصرية القديمة ، وتبينت مقام السيدة فى قومها ومنزلتها فى وطنها ، وعرفت مكانها ومبلغ أثرها ، فتقدمت اليها فى اعتداد واعتزاز وفى ثقة بالنفس وايمان بالواجب تعرض خدمتها عليها ، وتقول لها : يا سيدتى لا تظنى أن صغرى يمنعنى من القيام بالواجب ، وأن حداثتى تعوقنى عن الانضمام تحت لوائك خادمة لقضية المرأة .

فقبلتها السيدة الجليلة وقبلتها ، وكان سرورها بها عظيما لأنها استشفت من وراء كلماتها صدقها واخلاصها .

وانتظمت مى فى صفوف المجاهدات فكان ذكاؤها عجيباً وعمق تفكيرها أعجب ، وكانت روحها عظيمة وإحساسها أعظم ، حتى لقد قالت عنها هدى هانم [كنت أفزع أحياناً من تجمع كل هذه الصفات فيها ، وأخشى عليها تأثير تلك القوى الجبارة التى كانت تتنازع جسمها وقلبها وروحها] (٢)

وكان الأفق الضيق المحدود لخدمة جماعة بذاتها وحصر الجهود فيها لم يعجب (٣) ميا ، فرأت أن تخدم المرأة فى مجال أوسع ، وفى أفق أرحب ، وفى ميدان أكثر انفساحاً لآمالها وأمانيها ، ونشاطها وذكائها . فارتقت المنابر وهى مثال راق للمرأة الشرقية ، ودخلت ميادين الأدب وهى قدوة صالحة للمرأة العربية ، واستلست فى جهادها إلى قلبها الذى يصيب من الأمر الكلى والمفاصل ، وإلى لسانها الفصيح المبين الذى يجذب كل سامع .

وكان جهادها المنفرد ومجهودها الأوحد فى سبيل المرأة مما تقوم به الجماعات الكثيرة . وكان جهادها الأدبى بنوع خاص خير إعلان عن المرأة ، وأقوى دعاية لها .

(١) من حديث لحضرة صاحبة العصمة هدى هانم شعراوى ومن خطبتها فى تأبين مى
(٢) خطبة هدى هانم فى تأبين مى (٣) نفس المصدر

Digitized by Birzeit University Library

ان وفاء مى للمرأة الشرقية — مسلمة كانت أو غير مسلمة — لا يحتاج الى التدليل عليه ، وهل يحتاج النهار الواضح الى دليل ؟

ألم تكتب مى عن « السيدة وردة اليازجى » كتاباً كان فى الأصل محاضرة عن شعر هذه السيدة الكريمة ونثرها ومقامها الأدبى بين النساء ؟

ألم تكتب مى عن « باحثة البادية » كتاباً كان فى الأصل مقالات نشرت بالمقتطف عن « الباحثة » المسلمة المصرية الكاتبة الناقدة المصلحة ؟ ألم تعقد فصلا ممتعاً فى كتابها للموازنة بين قاسم أمين الرجل و باحثة البادية المرأة ؟

ألم يشهد المرحوم الدكتور يعقوب صروف لمى لمناسبة ظهور هذا الكتاب بكون أبحاثها [أنموذجاً جديداً للنقد فى العربيـــة] (١) وبأن الكتاب [فى موضوع واحد هو أهم المواضيع الاجتماعية فى هذا القطر ، ألا وهو المرأة المصرية وكيف تصلح شئونها فتصلح بها البلاد] (٢)

ألم تكتب مى عن « عائشة التيمورية » فصولا مستفيضـــة فى المقتطف موزعة بين عامى ١٩٢٤ : ١٩٢٥ لو جمعت وطبعت مستقلة لكانت كتاباً لا يقل قيمـــة وأمتاعاً للنفس وفائدة لتاريخ الأدب عن كتابها عن الباحثة ووردة اليازجى ؟

بلى ؟ لقد أنصفت مى المرأة الشرقية حينما أنصفت ثلاثاً من أديبات الشرق يمثلن مصر الخالدة ولبنان الخالد . . .

ورأى مى فى عمل المرأة ووظيفتها فى الحياة رأى المصلحة العاقلة . لا رأى الغرور الجاهلة . راعها من المرأة الحديثة أن تنسى وظيفتها المقدسة ، ومكانتها السامية ، وأفزعها أن ترى النساء منشغلات عن الأطفال ، منصرفات عن المنازل ، معرضات عن التربية ، مقبـــلات على اللهو واللعب ، عاكفات على الزينة والتبرج ، غارقات فى مجالسهن الثرثارة وأحاديثهن الفارغة .

راعها ذلك من المرأة العصرية فخاطبتها قائلة [(٣) عودى من نزهاتك الطويلة وزياراتك العديدة وأحاديثك السخيفة . عودى واركعى أمام الصغير واستميحيه عفواً .

لقد خلقت امرأة قبل أن تكونى حسناء . وكيفتك الطبيعة أماً قبل أن يجعلك الاجتماع زائرة]

* * *

كانت مى تصف مدنية الأمس بأنها مدنية عرجاء (٤) ، لأنها لم تستند إلا على جنس واحد من جنسين خلقهما الله ليكمل أحدهما الآخر ، وكانت شديدة الفرح بالنهضة النسائية فى مدنية اليوم لأنها ليست مدنية الرجل وحده ، بل هى (٥) مدنية الانسانية كلها .

---

(١) باحثة البادية المقدمة (٢) المصدر السابق (٣) ظلمات وأشعة ص ٣٦
(٤) كلمات واشارات ص ٣٦ و ٣٧ (٥) كلمات وأشارات ص ٣٧

Digitized by Birzeit University Library

ونادت مى بتعليم المرأة ولم تكن فى ندائها إلا صدى لتقدم زمانها ، لأن صيحات قاسم أمين ومن جاء بعده من المصلحين لم تذهب هباء. ولم تضع سدى ، ومن كلامها فى ذلك : [(١) قالوا أن المعارف لم تخلق للمرأة وان العلم يذهب بجمالها وتواضعها ولطفها وأنه يجعلها متكبرة جافة محتقرة العائلة هازئة بالرجل ، وها نحن نراها إذا تعلمت زادت جمالا وحناناً أكيداً واحتراماً للعائلة وإجلالا للرجل]

ولم تكن مى لترى فى تعليم المرأة مسوغاً لها يجعلها فى حل من تقاليد المجتمع الراقى ، فكثيراً ما حاربت هذه الفكرة فى مقالاتها وخطبها . فهي ترى تعليمها لتكون « أما » للطفل بروحها وعواطفها ، لا أما له بثديها وجسدها .

ولو أتاحت الأقدار « لمى » الفتاة أن تكون أماً لكانت أعلى مثال للأمهات الراقيات ، والوالدات الصالحات .

مى الكاتبة

سجلت مى اسمها فى تاريخ الأدب العربى كاتبة مجيدة ، ومؤلفة كثيرة الانتاج . أما إنتاجها فالبرهان عليه واضح غير خفى ، تشهد بذلك كتبها الثلاث عشرة التى أخرجتها المطابع وأدرك القراء ما فيها من جمال وخير ، وبحث ودرس وجدة وطرافة .

أما جودة كتابتها فهى مسألة قد يختلف فيها الرأى تبعاً للذوق الشخصى والميل النفسى ، ولكن الناس أجمعوا على تمجيد كتابتها وكان القراء يجدون فيها راحة ولذة لأنها صادرة عن صدق ، ناتجة عن إخلاص مستقاة من عاطفة وإحساس .

وقد أعجب بمى القارىء العادى لسهولة تعبيرها وصدق تفكيرها ، كما أعجب بها الخاصة لارتفاع فنها ، وحسن ذوقها ، وجمال تأنقها .

فمصطفى باشا عبد الرازق يصف كتابتها بالأناقة كما كانت أنيقة فى شأنها كله (٢) والدكتور منصور بك فهمى يعجبه من كتابتها الصقل الجميل ، والنغم المتساوق وحسن اختيار اللفظ ، وجمال رصف العبارات (٣) . وخليل بك مطران يقول عنها إنها [تكتب مصورة وملحنة ، ومقسمة

(١) المصدر السابق ص ٣٩ (٢) حديث معالى مصطفى باشا عبد الرازق فى هذا الكتاب
(٣) حديث منصور بك فهمى فى هذا الكتاب

Digitized by Birzeit University Library

للكلام على تقاسيم شعر خفي تتحرك به النفس [١] . والمرحوم الدكتور يعقوب صروف يقول انها جارت أكتب الكتاب الأوربيين فى البحث والانتقاد [٢]. وأن أسلوبها غاية فى الأحكام، وأنها أوتيت بلاغة فى التعبير عما فى نفسها وقدرة على ابتكار المعانى وافراغها فى قوالب جديدة واستعارات أنيقة .

والشاعر ولى الدين يكن يقول لها [فصولك الغضة تعلو بالمدارك وتنير [٣] جوانب النفوس فلا تدعيها كالأوراق التى تخضر فى الربيع وتذوى فى الشتاء ، اجمعيها جنية غضة وكللى بها رؤوس هذه الأعوام . . . الناس فى حاجة إلى هذه الأنغام الآلهية]

وكذلك أجمع الذين عرفوا ميآ أو قرأوها على علو كعبها فى الكتابة . ولمى غير كتبها الثلاث عشرة مقالات كثيرة متفرقة نثرت فى مجلات مختلفة وصحف سيارة أهمها المقتطف والهلال والأهرام والزهور والمحروسة .

* * *

ترجمت مى عن ثلاث لغات أوربية عظيمة ثلاث روايات مختلفات . رواية «رجوع الموجة» وقد نقلتها عن الفرنسية «والحب فى العذاب» وهى رواية تاريخية عن الانجليزية «وابتسامات ودموع» وهى رواية عن الألمانية ترجمتها مى فى بدء تعلمها اللغة الألمانية

ولقد نفدت الرواية الأولى من السوق فى زمن قصير ، وطبعت الرواية الثالثة طبعتين زادت فى ثانيتهما مى بعض الزيادات وغيرت بعض التغيير؟

والفرق بين طبعتى رواية « ابتسامات ودموع » أن الأولى منهما كان فيها بعض التصرف من مى ، ولعل عدم تمكن مى من اللغة الألمانية حينئذ قد ساعد على ذلك . أما الطبعة الثانية فقد تقيدت فيها المترجمة بالأصل معنى وتعبيراً محاولة — كما تقول — إبرازه إلى العربية بصيغته الشعرية البسيطة خالياً من الاستعارة الغربية والتنميق الشرقى [٤].

أما كتاباها «باحثة البادية» و « وردة اليازجى » فهما من نوع النقد الأدبى الممتاز، طبع أولهما مستقلا فى كتاب سنة ١٩٢٠ بعد أن نشر متفرقاً فى مجلة المقتطف ، وأضافت إليه الكاتبة عند طبعه كثيراً مما له علاقة بالموضوع .

وطبع الثانى فى كتيب صغير بمطبعة البلاغ بعد أن ألقى محاضرة فى جمعية الشابات المسيحيات سنة ١٩٢٤ ونشر تباعاً فى المقتطف .

وتعترف مى فى كلمتها [٥] فى تأبين الدكتور يعقوب بفضله عليها وتشجيعه لها على

(١) من حديث خليل بك مطران فى هذا الكتاب (٢) باحثة البادية : المقدمة ص١ (٣) سوانح فتاة: المقدمة
(٤) ابتسامات ودموع ص ١٧ طبعة ثانية (٥) المقتطف مايو سنة ١٩٢٨ ص ٥٦٩

Digitized by Birzeit University Library

دراسة هاتين الأديبتين ، مما شجعها على متابعة الكتابة عن عائشة التيمورية فى سلسلة من المقالات فى المقتطف لم ينتظمها الى اليوم كتاب واحد . أما كتابها « المساواة » فهو بحث اجتماعى يدل على اطلاع واسع ودراسة ممحصة ، ونظرة صحيحة ، ونفوذ الى حقائق التاريخ واستيعاب تام لحوادثه وأحداثه . تكلمت فيه مى عن الطبقات الاجتماعية ، والارستقراطية والعبودية والرق ، والديمقراطية والاشتراكية السلمية والاشتراكية الثورية ، والفوضوية والعدمية .

وتظهر شخصية مى الكاتبة مستقلة واضحة فى هذا الكتاب ، ويخيل الى أن الأمير شكيب ارسلان استكثر الكتاب على مى وظنه ترجمة لا وضعاً . بدليل ما كتبه المرحوم الدكتور صروف الى عطوفته فى ذلك الشأن [. . (١) وأرجح أنها لم تترجم شيئاً ترجمة ، لأنها تتكلم معى فى كل المواضيع الأدبية والفلسفية كما تكتب ، فانها قوية الذاكرة الى حد يفوق التصور ، وقد قرأت كثيراً من الكتب فى اللغات التى تحسنها ....] « والمساواة » نشر تباعاً بالمقتطف ، ثم نشر مستقلا فى كتاب طبع بالمطبعة الرحمانية .

أما كتابها « سوانح فتاة » فهو مجموع كلمات وخطرات فى موضوعات مختلفة لم يجمع بينها نسب . ولعلها تلك الكلمات التى كانت تنشرها مى فى الصحف من حين الى حين ، نشرته إدارة الهلال سنة ١٩٢٢ فحققت بذلك رغبة قديمة للشاعر ولى الدين يكن الذى اقترح على الكاتبة فى سنة ١٩١٣ أن تجمع تلك الفصول ولا تدعها كالأوراق المخضرة فى الربيع الذاوية فى الشتاء .

ولدار الهلال فضل أى فضل فى تشجيع مى ونشر كتبها ، فقد نشرت لها كذلك كتابها بين « الجزر والمد » الذى يمتاز عن « سوانحها » بتقارب موضوعاته وائتلافها . فهو صفحات عطرات فى اللغة وحياتها ، والمجمع اللغوى ومهمته ، ونقد الكتب ومعرض الصور وعالم الألحان والشعر القصصى الحماسى . وعندى أن هذا الكتاب القيم لا يستغنى عنه أديب ولا طالب أدب .

ونشرت دار الهلال لمى غير ذلك كتابين أحدهما « كلمات وأشارات » والثانى « ظلمات وأشعة » وقد طبع الكتابان فى عام واحد « سنة ١٩٢٣ » . أما الأول فهو مجموعة من الخطب تدور حول المرأة والاحسان ، والتكريم والتأبين ففيها من مى الرحيمة دموعها وحنانها . ومن مى الفتاة شجاعتها وإيمانها ، ومن مى الوفية آيات الوفاء ودموع الرثاء . . وقد قدم للكتاب بكلمة بليغة موجزة الأستاذ أميل زيدان أحد صاحبى « الهلال » .

أما الثانى « ظلمات وأشعة » فقد قسمته الى ثلاثة كتب : من كوة الحياة ونحو مرقص الحياة وفى مرقص الحياة ، وهو مجموع مقالات مختلفة الموضوعات . ففى مقال « نشيد نهر الصفا » تظهر وطنيتها وحنينها لمراتع صباها ، وفى مقال « بكاء الطفل » يظهر رأيها فى وظيفة الأم وواجبها ، وفى مقال « كن سعيداً » تظهر فلسفة مى فى السعادة وتصورها على اختلاف الحالات ، وفى بقية المقالات ما يدل على آرائها ونظراتها فى الحياة .

(١) معجم المطبوعات العربية ليوسف اليان سركيس

Digitized by Birzeit University Library

منتدى مى

وقف خليل بك مطران فى تأبين مى يقول من قصيدته

أقفر البيت أين ناديك يا مـــىُّ إليـــه الوفود يختلفونا
صفوة المشرقين نبلا وفضلا فى ذراك الرحيب يعتمرونا
فتساق البحوث فيه ضروباً ويدار الحديث فيه شجونا
وتصيب القلوبُ وهى غراث من ثمار العقول ما يشتهينا

فوصف ندىها أو « صالونها » الأدبى شعراً باحسن ما وصف الواصفون ، والحق أن الوفود كانت تختلف الى منتـــدى مى بين عالم وأديب ووزير ، فيزول التفاوت من بينهم ، ويجمع بينهم الأدب اللباب ، ويؤلف بينهم على اختلافهم فى المراتب ، وتفاوتهم فى المناصب .

ومى فى وسط الجمع تدير الحديث وتوجه الكلام ، وتقبل على الزوار فى بشاشة تنسيهم أنهم ضيوف ، وتقدم لهم شراب الورد سائغاً للشاربين . وكان من (١) أصدقائها الذين لا يتخلفون عن شهود منتداها المرحومون الدكتور شبلى شميل ، والدكتور يعقوب صروف واسماعيل باشا صبرى ، وولى الدين يكن ، ومحمد حسن نائل المرصفى

ياء — بارك الله فى أعمارهم — فمنهم أحمد لطفى السيد باشا ، ومصطفى عبد الرازق باشا ، والدكتور طه حسين بك ، والدكتور منصور فهمى بك ، والأستاذ عباس محمود العقاد .

وكان حديث منتداها كما وصفه معالى مصطفى باشا عبد الرازق (٢) فى جو يفيض أدباً وفناً وفكاهة وجداً ، ويفيض صفواً لا يكدره مكدر ، وكان مجلسها لا لغو فيه ولا تأثيم .

ذلك حديث منتداها ووصف زوارها . . أما المنتدى نفسه فهو رحب فسيح ، تأنقت هى فى اختيار أثاثه ، وظهر ذوقها السليم فى الطرف المنثورة فى جوانبه ، والصور المعلقة على جدرانه ، والتماثيل القائمة فى أركانه . وليس منتدى مى أو صالونها « بدعة » فى مصر كما ذكر الأستاذ سلامة موسى فى حديث له معها نشر بالهلال سنة ١٩٢٨ ، وليست مى هي التى أسست لأول مرة فى تاريخنا الحديث هذا الصالون ، كما ذكر الدكتور طه حسين بك فى الخطاب الذى ألقاه يوم تأبينها ، فقد سبقتها إلى ذلك الأميرة نازلى (٣) التى سفرت فى المجتمعات ، واشتركت مع الرجال فى مجالسهم ومجامعهم ، وجعلت فى قصرها (٤) شرفة قصر عابدين ندوة يفد اليها العلماء والأدباء ،

(١) مجلة الهلال ابريل سنة ١٩٢٨ (٢) من خطبة معاليه فى حفل التأبين (٣) من حديث لى مع سعادة جبرائيل تقلا باشا صاحب الاهرام (٤) صحح الدكتور طه حسين رأيه في الحديث المنشور في هذا الكتاب

Digitized by Birzeit University Library

يجادلون ويناظرون ، ويبحثون ويتشاورون فى العلم والأدب والاجتماع وخاصة فى السياسة التى شغلت رواد مجلسها فى ذلك الحين .

والمشابهة بين صالون مى وصالون الأميرة نازلى تكاد تكون تامة من حيث المناظرة والمناقشة والمحادثة ومقام الوافدين ومكانة المجتمعين ، ومن حيث تصوّن الأحاديث من كل ابتذال وارتفاعها عن كل صغيرة ، ومن حيث المناقشة فى موضوع المرأة والرجل . فقد كانت سمو الأميرة أول المشجعين لقاسم أمين العاطفين على حركته فى سبيل تحرير المرأة . إلا أن الصالونين يختلفان فى مسألة واحدة هى السياسة ، فلقد كانت المناقشات السياسية فى منتدى مى طارئة ، وفى منتدى الأميرة كانت أصيلة ثابتة .....

وليست أندية النساء بدعة فى التاريخ الأسلامى قديمه وحديثه وليست النساء البرزات المتحدثات إلى الرجال بحديثات فى تاريخ الأمة العربية فى جاهليتها وإسلامها .

فلقد اشتهر فى الجاهلية الخطيبات كما اشتهر الخطباء ، ومنهن هند بنت الخس وهى الزرقاء ، وجمعة بنت حابس (١) .

واشتهر فى الجاهلية نساء من المحكمات فى الشعر يجلسن بين الرجال ويسمعن القصيد ويحكمن فيه لشاعر على شاعر ، ومنهن أم جندب زوجة امرىء القيس التى حكمت بينه وبين علقمة الفحل ، وكان حكمها لعلقمة على زوجها فطلقها (٢) .

وفى الأسلام كانت عائشة أم المؤمنين زوج النبى عليه السلام وبنت أبى بكر الصديق تحفظ شعر لبيد (٣) وتتمثل به فى المجالس ، وتتكلم فى مسائل الفقه وفيها يقول النبى عليه السلام «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء» .

وظهرت فى مكة امرأة برزة جزلة اسمها «خرقاء» ، وكان عندها ساطان من الأعراب تحدثهم وتناشدهم بلا ريب ولا سوء ظن (٤)

وكانت عمرة امرأة أبى دهبل (٥) الشاعر جزلة يجتمع إليها الرجال للمحادثة وإنشاد الشعر والأخبار ، ولقد عرفها زوجها — قبل الزواج — فى أحد مجالسها فتزوجها .

ومجالس السيدة سكينة بنت الحسين بن على فى المدينة معروفة بذكرها كتب التاريخ والأدب ، فلقد ترجم لها ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان وذكر طرفاً من نوادرها وأخبارها فى مجالسها ومواقفها بين الشعراء والأدباء . وكانت تعرف كيف تأسر قلوب الرجال فى أدب ظاهر وعفة باطنة ، ولم يتعرض جمالها وملاحتها ، وطرة شعرها التى نسبت إليها — فقيل طرة سكينة —

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ج ١ ص ٣٢ (٢) المصدر نفسه ص ١٢٣ (٣) كتب التاريخ والسيرة (٤) كتب الادب (٥) تاريخ آداب اللغة العربية

Digitized by Birzeit University Library

ولم يتعرض مكانها وفضلها للقيل والقال ، وما عرفت عنها ريبة فى حياتها ، بل وصفها المؤرخون بأنها كانت أفضل نساء عصرها ، وأحسن سيدات جيلها (١)

هؤلاء النساء الجزلات البرزات المتحدثات الى الرجال وكثير غيرهن ممن ذكرتهن كتب التاريخ والأدب لم تتطرق إلى مجالسهن ريب أو شكوك ولم تصل إليها الوساوس وكان الاجتماع بين الرجال والنساء للمحادثة والمذاكرة على هذه الصورة بلا ريبة ولا سوء ظن لم يبلغ اليه الناس إلا فى الأمم الراقية وفى أرقى جمعياتهم (٢)

ومن الحظ الحسن لأنصار الأندية النسائية أن صاحباتها فى تاريخ الأدب العربى كن على جانب من الحرص فى المخالطة والحذر فى الاجتماع إلا ما كان من منتدى ولادة بنت المستكفى ... فقد أهملت فيه جانب الاحتراس مما أدى الى العلاقة بينها وبين أبى الوليد بن زيدون الشاعر الأندلسى الذى نظم لها القصيدة النونية المشهورة التى مطلعها : — (٣)

أضحى التنائى بديلا من تدانينا ونأب عن طيب لقيانا تجافينا

* * *

ولقد أشار أكثر الذين أنبوا ميا أو تحدثوا عنها الى «ناديها» أو صالونها ، ويكادون يجمعون على أنه كان مثالا راقياً للمجتمعات الأدبية الراقية ، ويصف معالى مصطفى باشا عبد الرازق مجلسها بأنه لا لغو فيه ولا تأثيم (٤).

وأظن أن مادار فيه من الأحاديث ، وما عولج فيه من المسائل ، وما روى فيه من الشعر ، وما نوقش فيه من مسائل العلم والأدب ، وما بدا فيه من المشارب والميول ، وما ظهر فيه من النفوس والعقول كل ذلك يصور لنا ناحية جميلة ممتعة من تاريخ الأدب فى العصر الحديث

* * *

ولقد زار اثنان من أفاضل الأمريكيين « ميا » فى نديها ، الأول هنرى جايمس القصصى الأمريكى وشقيق وليم جايمس العالم النفسى المشهور ، والثانى ابن الشاعر لونج فلو Long fellow الأمريكى . ولا أشك فى أن ميا كانت معهما مثالا للمرأة المثقفة ، ولا أشك كذلك فى أنهما أعجبا بعقلها الواسع وذكائها الكثير .

(١) خطط على باشا مبارك ووفيات الاعيان (٢) تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان (٣) نفح الطيب وكتب الادب (٤) من خطبة معاليه فى التأبين

دراسة هاتين الأديبتين ، مما شجعها على متابعة الكتابة عن عائشة التيمورية فى سلسلة من المقالات فى المقتطف لم ينتظمها الى اليوم كتاب واحد . أما كتابها « المساواة » فهو بحث اجتماعي يدل على اطلاع واسع ودراسة ممحصة ، ونظرة صحيحة ، ونفوذ الى حقائق التاريخ واستيعاب تام لحوادثه وأحداثه . تكلمت فيه مي عن الطبقات الاجتماعية ، والارستقراطية والعبودية والرق ، والديمقراطية والاشتراكية السلمية والاشتراكية الثورية ، والفوضوية والعدمية .

وتظهر شخصية مي الكاتبة مستقلة واضحة فى هذا الكتاب ، ويخيل الي أن الأمير شكيب ارسلان استكثر الكتاب على مي وظنه ترجمة لا وضعاً بدليل ما كتبه المرحوم الدكتور صروف الى عطوفته فى ذلك الشأن [. . (١) وأرجح أنها لم تترجم شيئاً ترجمة ، لأنها تتكلم معي فى كل المواضيع الأدبية والفلسفية كما تكتب ، فانها قوية الذاكرة الى حد يفوق التصور ، وقد قرأت كثيراً من الكتب فى اللغات التى تحسنها ....] « والمساواة » نشر تباعاً بالمقتطف ، ثم نشر مستقلا فى كتاب طبع بالمطبعة الرحمانية .

أما كتابها « سوانح فتاة » فهو مجموع كلمات وخطرات فى موضوعات مختلفة لم يجمع بينها نسب . ولعلها تلك الكلمات التى كانت تنشرها مي فى الصحف من حين الى حين ، نشرته إدارة الهلال سنة ١٩٢٢ فحققت بذلك رغبة قديمة للشاعر ولي الدين يكن الذى اقترح على الكاتبة فى سنة ١٩١٣ أن تجمع تلك الفصول ولا تدعها كالأوراق المخضرة فى الربيع الذاوية فى الشتاء .

ولدار الهلال فضل أى فضل فى تشجيع مي ونشر كتبها . فقد نشرت لها كذلك كتابها بين « الجزر والمد » الذى يمتاز عن « سوانحها » بتقارب موضوعاته وائتلافها . فهو صفحات عطرات فى اللغة وحياتها ، والمجمع اللغوى ومهمته ، ونقد الكتب ومعرض الصور وعالم الألحان والشعر القصصى الحماسى . وعندى أن هذا الكتاب القيم لا يستغنى عنه أديب ولا طالب أدب .

ونشرت دار الهلال لمى غير ذلك كتابين أحدهما « كلمات وأشارات » والثانى « ظلمات وأشعة » وقد طبع الكتابان فى عام واحد « سنة ١٩٢٣ » . أما الأول فهو مجموعة من الخطب تدور حول المرأة والاحسان ، والتكريم والتأبين ففيها من مي الرحيمة دموعها وحنانها . ومن مي الفتاة شجاعتها وإيمانها ، ومن مي الوفية آيات الوفاء ودموع الرثاء . . وقد قدم للكتاب بكلمة بليغة موجزة الأستاذ أميل زيدان أحد صاحبي « الهلال » .

أما الثانى « ظلمات وأشعة » فقد قسمته الى ثلاثة كتب : من كوة الحياة ونحو مرقص الحياة وفى مرقص الحياة ، وهو مجموع مقالات مختلفة الموضوعات . ففى مقال « نشيد نهر الصفاء » تظهر وطنيتها وحنينها لمراتع صباها ، وفى مقال « بكاء الطفل » يظهر رأيها فى وظيفة الأم وواجبها ، وفى مقال « كن سعيداً » تظهر فلسفة مي فى السعادة وتصورها على اختلاف الحالات ، وفى بقية المقالات ما يدل على آرائها ونظراتها فى الحياة .

(١) معجم المطبوعات العربية ليوسف اليان سركيس

Digitized by Birzeit University Library

منتدى مى

وقف خليل بك مطران فى تأبين مى يقول من قصيدته

أقفر البيت أين ناديك يا مـــىُّ إليـــه الوفود يختلفونا
صفوة المشرقين نبلا وفضلا فى ذراك الرحيب يعتمرونا
فتساق البحوث فيه ضروباً ويدار الحديث فيه شجونا
وتصيب القلوبُ وهى غراث من ثمار العقول ما يشتهينا

فوصف نديها أو « صالونها » الأدبى شعراً باحسن ما وصف الواصفون ، والحق أن الوفود كانت تختلف الى منتـــدى مى بين عالم وأديب ووزير ، فيزول التفاوت من بينهم ، ويجمع بينهم الأدب اللباب ، ويؤلف بينهم على اختلافهم فى المراتب ، وتفاوتهم فى المناصب .

ومى فى وسط الجمع تدير الحديث وتوجه الكلام ، وتقبل على الزوار فى بشاشة تنسيهم أنهم ضيوف ، وتقدم لهم شراب الورد سائغاً للشاربين . وكان من (١) أصدقائها الذين لا يتخلفون عن شهود منتداها المرحومون الدكتور شبلى شميل ، والدكتور يعقوب صروف واسماعيل باشا صبرى ، وولى الدين يكن ، ومحمد حسن نائل المرصفى

ياء — بارك الله فى أعمارهم — فمنهم أحمد لطفى السيد باشا ، ومصطفى عبد الرازق باشا ، والدكتور طه حسين بك ، والدكتور منصور فهمى بك ، والأستاذ عباس محمود العقاد .

وكان حديث منتداها كما وصفه معالى مصطفى باشا عبد الرازق (٢) فى جو يفيض أدباً وفناً وفكاهة وجداً ، ويفيض صفواً لا يكدره مكدر ، وكان مجلسها لا لغو فيه ولا تأثيم .

ذلك حديث منتداها ووصف زوارها . . أما المنتدى نفسه فهو رحب فسيح ، تأنقت هى فى اختيار أثاثه ، وظهر ذوقها السليم فى الطرف المنثورة فى جوانبه ، والصور المعلقة على جدرانه ، والتماثيل القائمة فى أركانه . وليس منتدى مى أو صالونها « بدعة » فى مصر كما ذكر الأستاذ سلامة موسى فى حديث له معها نشر بالهلال سنة ١٩٢٨ ، وليست مى هى التى أسست لأول مرة فى تاريخنا الحديث هذا الصالون ، كما ذكر الدكتور طه حسين بك فى الخطاب الذى ألقاه يوم تأبينها ، فقد سبقتها إلى ذلك الأميرة نازلى (٣) التى سفرت فى المجتمعات ، واشتركت مع الرجال فى مجالسهم ومجامعهم ، وجعلت فى قصرها (٤) شرفة قصر عابدين ندوة يفد اليها العلماء والأدباء ،

---

(١) مجلة الهلال ابريل سنة ١٩٢٨ (٢) من خطبة معاليه فى حفل التأبين (٣) من حديث لى مع سعادة جبرائيل تقلا باشا صاحب الاهرام (٤) صحح الدكتور طه حسين رأيه في الحديث المنشور في هذا الكتاب

Digitized by Birzeit University Library

يجادلون ويناظرون ، ويبحثون ويتشاورون فى العلم والأدب والاجتماع وخاصة فى السياسة التى شغلت رواد مجلسها فى ذلك الحين .

والمشابهة بين صالون مى وصالون الأميرة نازلى تكاد تكون تامة من حيث المناظرة والمناقشة والمحادثة ومقامُ الوافدين ومكانة المجتمعين ، ومن حيث تصوُّن الأحاديث من كل ابتذال وارتفاعها عن كل صغيرة ، ومن حيث المناقشة فى موضوع المرأة والرجل . فقد كانت سمو الأميرة أول المشجعين لقاسم أمين العاطفين على حركته فى سبيل تحرير المرأة . إلا أن الصالونين يختلفان فى مسألة واحدة هى السياسة ، فلقد كانت المناقشات السياسية فى منتدى مى طارئة ، وفى منتدى الأميرة كانت أصيلة ثابتة .....

وليست أندية النساء بدعة فى التاريخ الأسلامى قديمه وحديثه وليست النساء البرزات المتحدثات إلى الرجال بحديثات فى تاريخ الأمة العربية فى جاهليتها وإسلامها .

فلقد اشتهر فى الجاهلية الخطيبات كما اشتهر الخطباء ، ومنهن هند بنت الخس وهى الزرقاء ، وجمعة بنت حابس (١) .

واشتهر فى الجاهلية نساء من المحكمات فى الشعر يجلسن بين الرجال ويسمعن القصيد ويحكمن فيه لشاعر على شاعر ، ومنهن أم جندب زوجة امرىء القيس التى حكمت بينه وبين علقمة الفحل ، وكان حكمها لعلقمة على زوجها فطلقها (٢) .

وفى الأسلام كانت عائشة أم المؤمنين زوج النبى عليه السلام وبنت أبى بكر الصديق تحفظ شعر لبيد (٣) وتتمثل به فى المجالس ، وتتكلم فى مسائل الفقه وفيها يقول النبى عليه السلام «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء» .

وظهرت فى مكة امرأة برزة جزْلة اسمها «خرقاء» ، وكان عندها سماطان من الأعراب تحدثهم وتناشدهم بلا ريب ولا سوء ظن (٤) .

وكانت عمرة امرأة أبى دهبل (٥) الشاعر جزلة يجتمع إليها الرجال للمحادثة وإنشاد الشعر والأخبار ، ولقد عرفها زوجها — قبل الزواج — فى أحد مجالسها فتزوجها .

ومجالس السيدة سكينة بنت الحسين بن على فى المدينة معروفة تفيض بذكرها كتب التاريخ والأدب ، فلقد ترجم لها ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان وذكر طرفاً من نوادرها وأخبارها فى مجالسها ومواقفها بين الشعراء والأدباء . وكانت تعرف كيف تأسر قلوب الرجال فى أدب ظاهر وعفة باطنة ، ولم يتعرض جمالها وملاحتها ، وطرة شعرها التى نسبت إليها — فقيل طرة سكينية —

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ج ١ ص ٣٢ (٢) المصدر نفسه ص ١٢٣ (٣) كتب التاريخ والسيرة (٤) كتب الادب (٥) تاريخ آداب اللغة العربية

Digitized by Birzeit University Library

ولم يتعرض مكانها وفضلها للقيل والقال ، وما عرفت عنها ريبة فى حياتها ، بل وصفها المؤرخون بأنها كانت أفضل نساء عصرها ، وأحسن سيدات جيلها (١)

هؤلاء النساء الجزلات البرزات المتحدثات الى الرجال وكثير غيرهن ممن ذكرتهن كتب التاريخ والأدب لم تتطرق إلى مجالسهن ريب أو شكوك ولم تصل إليها الوساوس وكان الاجتماع بين الرجال والنساء للمحادثة والمذاكرة على هذه الصورة بلا ريبة ولا سوء ظن لم يبلغ اليه الناس إلا فى الأمم الراقية وفى أرقى جمعياتهم (٢)

ومن الحظ الحسن لأنصار الأندية النسائية أن صاحباتها فى تاريخ الأدب العربى كرّ على جانب من الحرص فى المخالطة والحذر فى الاجتماع إلا ما كان من منتدى ولادة بنت المستكفى ... فقد أهملت فيه جانب الاحتراس مما أدى الى العلاقة بينها وبين أبى الوليد بن زيدون الشاعر الأندلسى الذى نظم لها القصيدة النونية المشهورة التى مطلعها : — (٣)

أضحى التنائى بديلا من تدانينا ونابَ عن طيب لقيانا تجافينا

* * *

ولقد أشار أكثر الذين أبنوا ميّاً أو تحدثوا عنها الى «ناديها» أو صالونها ، ويكادون يجمعون على أنه كان مثالا راقياً للمجتمعات الأدبية الراقية ، ويصف معالى مصطفى باشا عبد الرازق مجلسها بأنه لا لغو فيه ولا تأثيم (٤).

وأظن أن مادار فيه من الأحاديث ، وما عولج فيه من المسائل ، وما روى فيه من الشعر ، وما نوقش فيه من مسائل العلم والأدب ، وما بدا فيه من المشارب والميول . وما ظهر فيه من النفوس والعقول كل ذلك يصور لنا ناحية جميلة ممتعة من تاريخ الأدب فى العصر الحديث

* * *

ولقد زار اثنان من أفاضل الأمريكيين « ميّاً » فى نديها ، الأول هنرى جايمس القصصى الأمريكى وشقيق وليم جايمس العالم النفسى المشهور ، والثانى ابن الشاعر لونج فلو Long fellow الأمريكى . ولا أشك فى أن ميّاً كانت معهما مثالا للمرأة المثقفة ، ولا أشك كذلك فى أنهما أعجبا بعقلها الواسع وذكائها الكثير .

كلية بير زيت
٥٨
BEERZEIT COLLEGE

(١) خطط على باشا مبارك ووفيات الاعيان (٢) تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان (٣) نفح الطيب وكتب الادب (٤) من خطبة معاليه فى التأبين

Digitized by Birzeit University Library

"وإنما المرء حديث بعده"

أحاديث عن مي

١ — حضرة صاحب المعالي الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا

٢ — حضرة صاحبة العصمة هدى هانم شعراوي

٣ — حضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين بك

٤ — حضرة النائب المحترم الاستاذ عباس محمود العقاد

٥ — حضرة الفاضلة السيدة ايمي خير

٦ — حضرة صاحب العزة الاستاذ انطون الجميّل بك

٧ — حضرة صاحب العزة الدكتور منصور فهمي بك

٨ — حضرة الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

٩ — حضرة الاستاذ خليل مطران بك

١٠ — حديث مي : لمحمد عبد الغني حسن

Digitized by Birzeit University Library

حضرة صاحب المعالي الشيخ

مصطفى عبد الرازق باشا

وزير الاوقاف

لم أتكلف في الوصول الى معالي مصطفى باشا عبد الرازق مشقة او عنتاً . ولم أصادف في الاتصال به جهداً ولا نصباً . فهو وزير من طراز الصدر الاول من بني العباس في سماحة الخلق ، وبشاشة الوجه ، وسجاحة النفس ، ورحابة الصدر . لا تفارق الابتسامة اللطيفة ثغره ولا يزايل التهلل والاشراق جبينه ؛ فهو كما قال عبيد الله بن قيس الرقيات في مصعب

شهابٌ من الله تجلّت عن وجهه الظلماء

ولقد شرفني (المقتطف) بأن أخذ منه الحديث عن (مي) فشرفني معاليه باستجابة الدعوة وتحديد الموعد . وكان كريماً في تفضله ، رفيعاً في تنازله ، دانياً في تواضعه ، عالياً في مجده ؛ فذكرني شأناه من الدنوّ والسموّ بقول الشاعر :

كذاك الشمس تبعد ان تسامى ويدنو الضوءُ منها والشعاع

وشرّفني معاليه — للمرة الثانية — بلقاء وشيك ، واستقبال سريع فما جرى على غير سجيته ومألوف بره ، وكان في يومه خيراً من أمسه . وفي الغد بكّرت في الحضور حتى يكون حظي من اللقاء اعظم ومداي من الحديث أفسح ، وهنا طال المجلس ، وامتدّ الحديث ، وأنا كثير الطمع في رحابة صدره ، واتساع آفاق حلمه ، ومعاليه يستمع الى أسئلتي عن (مي) فيجيب عنها في هدوء الفيلسوف ، وألمعية الأديب ، وتمكّن العالم

فما ضاق معاليه بسؤال ، ولا تعرّض لبعض الجواب وسكت عن بعض ، ولكنه كان يستوفي الاجابة في دقة ورفق وأناة ، وفي بصر بمواقع الكلام ومرامي الحديث ، وفي أناقة في اللفظ وسلامة في التعبير وسمو في التفكير

والأدب والعلم في بيت عبد الرازق ميراث الأجداد الى الأبناء ، واليهم انتهى القضاء الشرعي في البهنسا بمديرية المنيا ومن هنا تعرف السر في احتفائهم بمن يمت الى الادب بنسب أو تتصل منه بسبب ، وان كان بشرهم وايناسهم قد عمّ كل طبقة وامتدّ الى كل طائفة

Digitized by Birzeit University Library

رأيت في زيارتي الثالثة لمعاليه شيخاً في مكتبه، وقد أدناه الوزير منه وقرّبه اليه، والشيخ يميل على جوانبه كأنه يميل على أبيه ... فعرفت كيف استطاع مصطفى باشا أن يجتذب القلوب، ويأسر النفوس، ويجعل الناس مجتمعة على محبته

ومعالي مصطفى باشا عبد الرازق أديب قبل ان يكون فيلسوفاً وشاعر قبل ان يكون كاتباً، ولقد مدح معاليه وهو فتى ناشيء الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده على احد مواقفه بقصيدة

وتظهر شاعريته في رقة حاشيته، ولطف جانبه، وسلامة ذوقه في قيامه وقعوده وتسليمه ووداعه، واستواء هيئته، وحسن بزته، وفي حلاوة حديثه وعذوبة صمته ...

ولعلّ معاليه ترك قرض الشعر من زمن بعيد وعمد الى النثر، أو لعله يضن بشعره ان ينشر، ولكن الذي لا شك فيه ان في معاليه من الشاعر السامي، الرقة والاحساس والشعور وفي وجهه شاهد من الخبر ....

ومعاليه كاتب من طراز رفيع، وله في كتابته سمتان أحداهما دقته التي كانت نتيجة اشتغاله بتدريس المنطق والفلسفة الاسلامية في الجامعة المصرية. والاخرى هذه الاناقة في التعبير، وذلك الاحتفال بالاسلوب دون قصد الى تعمد او تكلف. فالاناقة طبعه، والرقة سجيته في شأنه كله

٭٭٭

ولقد وقف معاليه في حفل تأبين (مي) يلقي كلمته، ويستعيد (من ذكرياته) في صوت خاشع رزين، وفي جو تجللهُ الهابة والوقار. ولقد اجتمع في اثناء كلمته وفاء ذكرى مي بوقار معاليه، والتقى جلال الموقف مع جلال الوزير، فاذا الجمع ساكت، واذا الأبصار خاشعة، واذا كلمته في القائها المتزن، ووزنها المعتدل، وصدقها واخلاصها تثير في السامعين مكامن الشجن، ولواعج الحزن

ولقد تخير معاليه لكلمته في الحفل استهلالاً بارعاً، كما يتخير الشاعر في قصيدته روائع المطالع، ما أجمل وأروع ذلك المطلع من كلمته حيث يقول (شهدنا مشرق مي وشهدنا مغيبها. ولم يكن طويلاً عهد مي، على ان عهدها الأدبي كان طويلاً في الحياة عريضاً)

وذكرني توديع معاليه لتلك الشمس المشرقة الغاربة على قصر عهدها وصغر عمرها بالكلمة المشهورة لفيكتور هوجو (أيتها الشمس المتغيبة وراء الأفق؟ ان أشعتك باقية الأنوار)

Digitized by Birzeit University Library

وهي الكلمة التي ودعت بها (ميّ) المرحوم الدكتور يعقوب صروف في حفل تأبينه بدار الأوبرا الملكية

ومصطفى باشا عبد الرازق بتأبينه (ميّا) في حفلها ، وبتكرمه بالحديث عنها الى المقتطف يضرب أحسن الأمثلة في الوفاء ورعاية حقوق الصداقة وواجبات المودة . ومعاليه يعرف كيف يتخير الأصدقاء حتى من تلاميذه ، ويقول في مقدمة كتاب معروف ترجمة واحد منهم (اذا لم يكن لنا من تلاميذنا أصدقاء ، فليس لنا في الناس من صديق)

وسيرة مصطفى باشا عبد الرازق تتعطر بها المجالس وهي تمتاز الى الجانب الخلقي الرفيع منها بجانب الدأب والتحصيل والاطلاع الدائم المتصل ، وقد اشار الى مكان معاليه في النهضة التجديدية الحديثة الدكتور تشارلز آدمز مؤلف كتاب (الاسلام والتجديد في مصر) وذكر طرفاً من ترجمته وآثاره

بدأ حياته نابهاً ألمعيًّا ، وبلغ اليوم ما نرجو له مزيد الخير فيه ، فلقد بلغ السماء مجده وجدوده ، إنا لنرجو له فوق ذلك مظهراً

***

١ – سألت معاليه : (كيف نشأت الصلة بين معاليكم وبين « مي » ، وما رأيكم في ناديها الادبي وإدارتها الحديث فيه ؟)

فأجاب معاليه : رأيتها أول مرة في حفلة « بالكونتنتال » للاحتفال بمرور خمسة وعشرين عاماً على انشاء مطبعة المعارف. والواقع ان الزمن أنساني كيف نشأت الصلة ، ولكن الذي لا ينسى أنني بعد هذا كنت من المترددين على ناديها الأدبي . والحق ان « ميًّا » لم تكن تغشى الحفلات الاجتماعية والأندية كثيراً ، فكان الاجتماع للمتصلين بها في ناديها الخاص الذي جعلته في بيتها ، وكان المجتمعون يستطيعون ان يقدروا جميع مواهبها الأدبية والخلقية . أما من الناحية الأدبية الفنية فلأنها كانت هي التي تتولى ادارة الحديث في المجمع وكان تنوّع الأحاديث وسموها وسلامتها من كل ما لا تخلص منه عادةً المجامع يدل على مقدار كفايتها الادبية ، وقيمتها الاخلاقية

وكانت « ميّ » تدير الحديث ولكن من غير ان تظهر بمظهر المتزعمة في النادي ، او المتصدرة في المحفل مما يدل على ناحية من نواحيها الخلقية الجميلة

Digitized by Birzeit University Library

٢ — فسألت معاليه : (ما رأي معاليكم في تحصيل مي للعلوم ، واكبابها على الدرس وغرامها بالمطالعة ؟)

فأجاب معاليه : أظن ان أحداً ممن عرف الآنسة « ميّ » لا يشك في أنها كانت متنوعة الثقافة ، وأنها كانت مشغوفة بالتحصيل والاستفادة والمطالعة وكانت دراستها — فيما أعتقد — دراسات أدبية . أعني أنها تذهب الى ناحية التفكير الأدبي أو الاجتماعي او الاخلاقي من غير ان تنزع الى نزعة التخصص التي تدعو الى الدخول في معضلات المسائل العالية او في استعمال الاساليب الفنية في التعبير . وليس هذا الذي ذكرت غضّاً من قيمة «ميّ» العلمية، لأنه اذا كان أثر العلماء المتخصصين أثراً كبيراً في ترقية الفكر الانساني ، وترقية الحضارة الانسانية، فان أثر العلماء المتأدبين في ترقية التفكر الانساني وفي ترقية الحضارة ليس أقل شأناً ولعلّ الأفكار والأبحاث العلمية التي لها صبغتها الفنية لا تصل الى دور العمل ودور النفوذ الى عقول الشعوب وقلوبها الاّ بوساطة الادب

٣ — فسألت معاليه : (ماذا كانت لغة الحديث عند (مي) في نديها وفي خلال مناقشاتها ؟)

فأجاب معاليه : أما حديث «ميّ» الغالب فكان باللغة العربية . وكان بالعربية الفصحى ومع تأنق (ميّ) في شأنها كله ، وفي حديثها على الخصوص، فانها كانت تصل الى جعل اللغة العربية الفصحى لغة حديث في مجمع راقٍ ليس كل شاهديه من أنصار العربية الفصحى ، من غير ان يشعر أحد من سامعيها بأن حديثها أقل سلاسة او أظهر تكلفاً من حديث المتكلمين باللغة العربية العادية او المتكلمين بأي لغة من اللغات الحية الراقية

وأظن ان ميّا خدمت بهذه الناحية من نواحيها اللغة العربية خدمة كبيرة ، لانه اذا كانت الجرائد والمجلات أعانت على التوفيق بين منازع الراغبين في استعمال اللغة العربية بأساليبها الموروثة وبين منازع الراغبين في استعمال اللغة العامية ، او ما يشبه اللغة العامية ، فان ميّا أسدت هذه الخدمة نفسها الى اللغة العربية في ناحية لا تصل اليها الجرائد ، وهي ناحية التخاطب والتحاور . فكما أسدت الصحف والمجلات خدمة التوفيق بين هذه المنازع عن طريق الكتابة ، فان (ميّا) أدتها عن طريق الحديث والمخاطبة

٤ — فسألت معاليه (ما رأيكم في الكآبة التي استولت حيناً على مي ؟ هل

Digitized by Birzeit University Library

كانت املاً فيها ام طارئة عليها ؟ وهل ساعد تفكيرها العميق على اسعافها في أحزانها او اسعادها ؟)

فأجاب معاليه في إيجاز : لا أعتقد ان ميًّا كانت بأصل فطرتها كئيبة ، وقد يكون مجهودها العقلي أعان الظروف السيئة التي صادفتها في سنيها الأخيرة على ما جد لها من كآبة وحزن

٥ — فسألت معاليه (ما احب كتب « مي » او آثارها القلمية الى معاليكم ولماذا ؟)

فأجاب معاليه : لعلي لم أسأل نفسي هذا السؤال قبل اليوم ! ولكن في حفل تأبينها سمعنا قطعة من قطع (ميّ) الادبية ألقتها فتاة لها صوت « مي » فخيل اليَّ ساعتئذٍ ان هذه القطعة هي أحب ما كتبت « مي » الى نفسي

٦ — فسألت معاليه : (هل كانت « مي » من المحافظات على التقاليد ، المتمسكات بموروث العادات ؟ وما سر ذلك الحفاظ منها على الرغم من تشبعها بالثقافة الغربية ؟)

فأجاب معاليه : اذا كانت المحافظة على التقاليد درجات ، فان «ميًّا » لم تكن في طرفيها ، وأعني أنها لم تكن في اول حدود المحافظة ولا في نهاية حدودها . ولعلنا — في جيلنا — لم نكن نرى « ميًّا » من المحافظات ، ولكن معاني المحافظة والتجديد تتغير وتتغير بسرعة ، ولعل ما كان معتبراً من التجديد في اوائل هذا القرن أصبح في أيامنا هذه يعتبر محافظة . وقد أصبحت خطوات الزمن أسرع من خطوات المفكرين الذين يطلبون التجديد عن روية وأناة « فمي » كانت مجددة في حكم الرأي العام لأول عهدها ، ثم تطورت الظروف بأسرع مما تطورت ميّ ، لأن « ميًّا » كانت مفكرة ، وما أظن الظروف تراعي في تطوراتها تفكيراً

٧ — فسألت معاليه : (لقد دافعت مي عن الاسلام ودعمت قراطيته في كتابها (المساواة) . فهل درست مي شيئاً عن روح الاسلام وحقيقته وفلسفته ؟ واذا كان ذلك فمن كان معلمها ؟)

Digitized by Birzeit University Library

فأجاب معاليه : ما اظن ان مبًّا كانت تجهل من الاسلام ما يجب على أديب منقف أن يعرفهُ من شئون دين له في تاريخ الفكر البشري . والحياة الأدبية في البشر ما للاسلام

ولم تكن (مي) متعصبة لدين ، ولكنها كانت متدينة ، ولم تمسَّ نزعاتُ الفكر الحر المسرفةُ أحياناً — التي كانت تحيط بها — صميم ايمانها

٨ — فسألت معاليه : (الاجمال بالطبع للمفاضلة بين عائشة التيمورية وباحثة البادية والآنسة مي ولكني أسأل معاليكم عن رأيكم اجمالاً في اثر هؤلاء الكواتب والشواعر في الأدب العربي)

فأجاب معاليه : الواقع ان اعتبار ظروف الزمن والأحوال الاجتماعية المحيطة بالاشخاص له أثر كبير في تقدير قيمتهم ووزن أثرهم في الجماعة أو في الأدب

فالزمن الذي نشأت فيه عائشة التيمورية باعتبار المستوى العلمي والادبي لم يكن مستعدًّا لأن ينشىء أديبة كمي ، ولم يكن مستعدًّا لأن يحتمل نزعة من نزعات النهوض النسائي كالنزعة التي أوجدتها باحثة البادية ، او النزعة التي أوجدتها «مي»

فاذا كانت «مي» أوسع ثقافةً او أكبر مظهراً في الحياة الادبية من سابقتيها فينبغي ألا ينسى عند الحكم في ذلك انه يرجع الى اختلاف التطورات واختلاف البيئات ، بل اختلاف الحياة كلها في هذه الأجيال الثلاثة التي تمثلها الأدبيات الثلاث

٩ — فسألت معاليه : (ما أثر الآداب الافرنجية في الآنسة مي وفي طريقة كتابتها؟)

فأجاب معاليه : للآداب الافرنجية من غير شك أثر ظاهر في اسلوب مي وفي طريقة معالجتها للموضوعات التي عالجتها . ولعلَّ أثر الآداب الاوربية الذي وصل الى مي من طريق الكتاب السوريين في أميركا — كتاب المهجر — لا يقل عن أثر مطالعتها للآداب الأوروبية ذاتها . ولمي ومن يحذو حذوها من الأديبات والأدباء مذهب في الكتابة العربية لا يزال حيًّا يزاحم في ميدان التنافس بين الاساليب الجديدة التي يلتمس كل واحد منها النصر في سبيل التغالب . والله أعلم لأيها يكون النصر

ومن يدري ؟ فقد يكون للحرب القائمة ونتيجتها أثر حتى في أساليب التفاهم بين الناس

Digitized by Birzeit University Library

حضرة صاحبة العصمة السيدة الجليلة

هدى هانم شعراوي

رئيسة الاتحاد النسائي

السيدة هدى هانم شعراوي هي زعيمة « الاتحاد النسائي » ، ومثال راقٍ للمرأة المصرية المثقفة ، الموزع قلبها بين يدٍ تسديها او صنيعة تقدمها او بر تدخره عند الله

سمعتها تفتتح حفل تأبين « ميّ » وعليها هالة من وقار ، وسمات من كرامة محتد وعراقة أصل ، وفيها ثقة واعتداد ، واطمئنان واعتزاز . وكان الحزن يبدو في نبرات صوتها وقسمات وجهها ، ومن خلال سطور كلتها . وكانت تروح على مسرح الحفل وتغدو ، وتقوم وتقعد ، لأن نظام الاجتماع كان موكولاً اليها ، ونجاح الحفل كان مردُّهُ الى فضل نشاطها وحسن تنظيمها

وبلغ تأبين ميّ في دار « الاتحاد النسائي » غاية النجاح ، وانتهى الحفل ، وطوي البساط وانفضّ الجمع الحاشد الذي وفد ليسمع الانسانية تؤبن ميًّا » الانسانة ، وليرى رياض الأدب تبكي على « ميّ » الزهرة ، وليشترك في الوفاء لفتاة كان من طبيعتها الوفاء لشرقيتها وجنسها ووطنها . وجميل من هدى شعراوي ان تخص «ميًّا» بتكريمها بعد موتها كما كرّمتها في حياتها . فان عصمتها أولى الناس بتقدير العاملات وتكريم النابهات

ولقد سمعتها بعد الحفل تتحدث الى الدكتور طه حسين بك في شأن فتاة تساعدها عصمتها على اتمام تعليمها ، وتعينها على تحقيق آمالها . ويظهر ان هذه الفتاة واسعة الآمال ، عريضة الأماني . وكنت أستشفُّ من كلام عصمتها الى « مراقب الثقافة بوزارة المعارف » معاني الرحمة التي طبعت عليها ، وألمس في كلماتها الرحيمة القوية ، عطف المرأة في جنانها ووجدانها ، وقوة المرأة في اعتقادها وإيمانها ... ومن عجب ان السيدة «هدى» التي تعين الفتيات على التعليم ، وتمدهنّ بأسباب دخول المدارس والانتظام في المعاهد — لم تدخل مدرسة في حياتها ، ولم تتعلّم في معهد ... بل انتقلت المدارس اليها في قصر أبيها ، وجاءها المدرسون والمدرسات في معاهد طفولتها ومراتع صباها ...

ومن أول أعمال هدى في سبيل البرّ اشتراكها في مبرة محمد علي التي دعت اليها الأميرة عين الحياة زوجة الأمير حسين كامل . تلك المبرة التي نجحت وما زالت ناجحة الى يومنا هذا

Digitized by Birzeit University Library

وهي أول مصرية نادت بالسفور عمليا ، وتركت المحجبين يتناظرون ، والمجادلين يتناقشون ، ونزعت البرقع في صيف سنة ١٩٢٠ بعد ان عادت من تمثيل مصر في مؤتمر الاتحاد النسائي برومة ، وكان ذلك آخر عهدها بالحجاب

ولنشاط صاحبة العصمة في سبيل المرأة المصرية ، وفي سبيل البر والاحسان ، لا يقف عند غاية ، ولا ينتهي عند أمد . فرأست « جمعية المرأة الجديدة » التي أسستها بعض المعلمات سنة ١٩٢٠ . وأسست في سنة ١٩٢٤ « الاتحاد النسائي » وهو نادٍ ومدرسة ومشغل . وتقيم من حين الى حين سوقاً خيرية لمشغل الاتحاد ، وهي سوق ناجحة رابحة

والسيدة « هدى » تعطي ولا تتحدث ، وتحسن ولا تتكلم ، وتتصدق ولا تمنّ ، لأن الاحسان فيها لله لا لغرض ، والمعروف فيها للمعروف لا لوجه آخر ... تبرعت مرة بمبلغ الف جنيه « للمرأة الجديدة » ولم تذكر منهُ شيئاً ، وتتبرع غير ذلك بالمئات وعشراتها . فلا تتحدث عن نفسها ولكنها لا تستطيع ان تجعل الناس لا يتحدثون عنها ... فلا قيمة عندها للمال ، ولكنهُ العمل الصالح يربي على الاعمال ، ويزيد على كل مال

بعد انتهاء حفل ميّ بأيام ، كنت عند صديقي وأستاذي أنطون بك الجميّل في مساء عاصف فيه من الحرب أنباء وأخبار ... واذا بهِ يريني رسالة من هدى هانم شعراوي تشكر لهُ اشتراكه بجهده ووقته في حفل تأبين ميّ . واذا بهِ يقول :— لست أدري يا أخي أينا أحق بالشكر وأجدر بالثناء ؟

فهدى شعراوي لم تَرَ فيما صنعتهُ هي ما يستحق شكراً او يستوجب ثناءً ، وهذا مثل منها في الانكار والايثار . ولكن عصمتها نسيت أنها خلعت من جلال شخصيتها ، ومعروف مكانتها على حفل « ميّ » ما أفاض عليهِ الجلال والوقار

فبدت « ميّ » في هذا الاحتفال في جلال الموت ، وخشوع الذكرى ، وسواد الأطار ، كما كانت تبدو في أدبها وكتبها وتذيّبها فرحة القلوب وبهجة الأنظار

***

١ — سألتها : (كيف عرفت ميّاً . وما أولى ذكرياتك عن مقابلتك الاولى لها ، وما الاثر الذي تركته في نفس عصمتك ؟)

فأجابت : ترجع معرفتي بمي الى ما يزيد على خمس وعشرين سنة ، وهي حقبة طويلة من العمر وفسحة مديدة من الزمن كما ترى ، الا أنها قصيرة بالقياس الى ميّ ، والورود دائماً قصيرة

Digitized by Birzeit University Library

الأعمار، قليلة الآجال، وهل كانت ميّ الاّ وردة ناضرة مملوءة بكل معاني الحياة والقوة. وهل كانت ميّ الاّ زهرة من تلك الازهار الجميلة التي تتفتح ساعات أو أياماً في روض الحياة ثم لا تلبث أن يعاجلها الذبول، أوكوكباً متألقاً في سماء الدنيا ساعة ثم يدركه الأفول ؟

***

ترجع معرفتي بمي — بالضبط — الى شهر ابريل من سنة ١٩١٤. فقد كنا في ذلك الحين ننظم سلسلة من المحاضرات للسيدات في الجامعة المصرية القديمة

وكان يختلف الى بهو المحاضرات عدد مختلف من كرام الاوانس وفضليات السيدات، دفعهنّ الشوق الى العلم، ورمى بهنّ الينا التوق الى المعرفة والثقافة. وقادهن مصباح من الأمل ... ذلك الأمل الذي كان يختلج في صدر المرأة المصرية في إبان حركتها وفي مقتبل نهضتها

وبينما أنا في سبيلي الى مغادرة بهو المحاضرات بعد القاء المحاضرة اذا بعيني تقع على فتاة تميزها من بين ذلك الجمع النسوي حركات رشيقة، وروح لطيفة خفيفة، وينبعث من عينيها السوداوين أشعة قوية من ذكاء خارق، وألمعية حادة، وفطنة نادرة

وتجتمع هذه الخايل كلها في وجه جمّله الله بصباحة خاصة، وسمة متميزة، وميزه بأسارير مشرقة عن ابتسامات عذاب، كابتسامة الزهرة للشمس والماء والهواء في فصل الربيع ...

رأيت هذه الفتاة تقترب مني قليلاً، وتفد صوبي وتستوقفني قائلةً (سيدتي هدى : أنا معجبة بمشروعك مقدرة لما تبذلينهُ من جهد. لذلك أضع نفسي تحت تصرفك. ولا تظنّي يا سيدتي أني صغيرة لا استطيع المعاونة او لا اقدر على المساعدة ... أنا كاتبة وشاعرة. أنا أكتب في الصحف وأنشر في المجلات. أنا « مي » ولا أظنك ياسيدتي إلاّ قرأت شيئاً مما كتبته. ألا تعرفينني ؟؟)

وكانت هذه الكلمات الصريحة المملوءة بالشجاعة الأدبية والاعتداد بالنفس والثقة بالشخصية، والتي تنم في الوقت نفسه على روح مفعمة بالنية الخالصة والقصد الحسن — كانت باعثتي على ان اضم تلك الفتاة الى صدري، وان أقبلها قبلة الاعجاب بها والرضى عن نبل مقصدها وشرف غايتها

وأبديت لتلك الفتاة التي عرضت نفسها لخدمة غرضنا النبيل إعجابي بمعرفتها وسروري

Digitized by Birzeit University Library

برؤيتها واغتباطي بانضمامها الى صفوف حركتنا كاتبة بقلمها ، وموحية بفكرها ، وملهمة بشاعريتها . . .

ولم يمنعني صغر سنها وحداثة عمرها من ان أرحب بانضمامها الينا ، ومن أن أتوقع منها الجهد الكبير والعمل العظيم . وهل يمنع السن الصغير فضلاً ، او تحجب الحداثة حاماً ونبلا ؟ ألم يقل المتنبي الشاعر

فما الحداثة من حلم بمانعة قد يظهر الحلم في الشبان والشيب

ثم ألم يقل الشاعر الآخر

ورب صغير لاحظته عناية من الله فاحتاجت اليه الأكابر

٢ — فسألت عصمتها : (ما النواحي الجميلة التي كانت تعجبك من الفتاة مي والمميزات في الخَلق وفي الخُلق التي امتازت بها ؟)

فكان الجواب : لقد رأيت في مي انساناً غير عادي ، لقد حباها الله — وهو واسع الفضل — بعقل كبير ، ولكن قلبها كان أكبر من عقلها . فقد كان ذلك القلب يتسع لمعانٍ شتى من الرحمة والعطف والحنان . وكانت مي عالية النفس ، فما عرفتها تدنت الى دنية أو تنزلت الى سُفل . وكانت واسعة آفاق التفكير فما عرفتها وقفت عند حد محدود . وكانت بعيدة الادراك فما رأيت منها قصوراً فيه . ومع تلك الصفات المحبوبة ، والمزايا الموهوبة كانت بعيدة عن الغرور ، منزهة عن الانخداع ، فما عرفتها زُهيت بعلم او تاهت بذكاء او دلّت بتفكير . ولكنها كانت تعرف قدر نفسها في تواضع جميل ، وبساطة محبوبة . ولم تكن مي على وسامتها ووضاحة وجهها جميلة بالمعنى الصحيح للجمال ، ولكن نفسها كانت أجل من وجهها ، ووروحها أجل من صورتها . فكانت بين الجميلات لا تبدو أقل منهن فتنة ولا أضأل نصيباً من الجاذبية . لقد كان يجمل ميًّا بين الجميلات ، ويزينها بينهن شيءٌ خفي وسر مستبهم لعله هو الذي حيَّر الشاعر فقال :—

شيءٌ به فتن الورى غير الذي يدعى الجمال ولست أدري ما هو

وليس في الأمر عندي سرٌّ مستغلق ولا خفي مبهم ، فسر جمال مي كان في روحها والجمال المعنوي الروحي هو ضربٌ من الجمال يسمو على كل جمال

٣ — فسألتها : (هل صرفت الثقافة الأوربية والحضارة الغربية ميًّا عن الأمثلة

Digitized by Birzeit University Library

الشرقية العالية، وهل اندفعت مي في تيار المحدثين تذهب مذاهبهم في التمسك بكل ما هو غربي، والتنصل مما هو شرقي ؟)

فكان جواب عصمتها : لقد وجدت في مي من الاعتصام بالشرق والحفاظ على الشرقية ما يجعلني أذكر مع الفخر أنها كانت المثل الأعلى للفتاة الشرقية الراقية المثقفة . لقد نهلت مي حقاً من موارد الغرب ووردت حياضه وأخذت كثيراً من طرائقه واتجاهاته، ولكن ذلك كله لم ينسها حق أهلها وفرض وطنها — وقد كان الشرق كله لها وطناً — فما أضاعت عادات أهلها، ولا احتقرت تقاليد قومها، ولا فنيت في الغرب كما يفنى فيه المستضعفون

لقد كانت مي معتزة بقوميتها، مفتخرة بنسبتها، متمكنة من لغتها العربية فاهمة للكثير من دقائقها وأسرار جمالها وكانت محافظة كل الحفاظ على شخصيتها الشرقية فما ضيعتها او نزلت عنها او لبست ثياباً غيرها لا توائمها . وكانت عقائد قومها محل احترامها وموضع إكرامها، فما غمزت او لمزت على نحو ما يفعل الغامزون اللامزون . ولكنها كانت تتألم لعيوب الشرق، وتبكي على ضعفه المادي وتتمنى ان يتاح له من القوة المادية ما يكمل به سمو روحانيته

٤ — فسألتها : (ما رأي عصمتك في طريقة مي في كتابتها وتفكيرها)

فأجابت : كانت في مي دقة امتازت بها كتابتها، واختص بها أسلوبها. ولم تكن ابحاثها مبتسرة، ولا موضوعاتها مرتجلة، ولكنها كانت وليدة البحث، ونتيجة التمحيص . تكتب مي فترى الدقة في كتابتها والضبط في تعبيرها، وتحاضر مي فلا تراها مسرفة في التعبير او مبذرة في الالفاظ . ولعل دراستها للغات الاجنبية قد مكنت لها من أسباب التدقيق والتمحيص

وكانت هذه الصفة من الدقة لا تفارق ميّا في أي موضوع طرقته او بحث عالجته، حتى في كتاباتها العاطفية الخيالية، فلم يكن خيالها شارداً تائهاً، ولم تكن أحلامها في سبيل الشرق أوهاماً بل كانت تبنى غالباً على أفكار دقيقة وآراء ممحصة

٥ — فسألت عصمتها : (ما الآثار التي تركتها مي في الحركة النسائية في مصر)

فتفضلت بالجواب قائلة : لما عرضت مي عليّ خدمتها لحركتنا سنة ١٩١٤ رحبت بها لما

لمحته فيها من الصدق ، وتبينته في كلامها من الاخلاص . وقد طابق فعلها — بعدئذٍ — قولها ، وصدق عملها حديثها . فلقد انضمت الى صفوفنا متواضعة الاخلاق ، قوية الروح عميقة التفكير ، وكانت تدهشنا جميعاً بالذكاء الحاد المتفجر من كل اشارة من اشاراتها ، او خلجة من خلجاتها ، او نبرة من نبراتها . وكان أكثر ما يدهشنا منها سير روحها ودقة احساسها . فلقد كانت مي تتأثر لكل شيء ، وتحس بكل شيء . وكنت أخشى على المسكينة من اجتماع هذه المميزات فيها . نعم كنت أخشى ان يخفي عليها ذكاؤها ، او يقتلها نبوغها ألم يقل الشاعر « ذكاء المرء محسوب عليه »

نعم كنت أفزع من ان تصطلح عليها هذي القوى الجبارة العنيفة التي كان قلبها وروحها وجسمها موزعة بينها ، وأخشى ان تهدها تلك القوى هدًّا ، وتدكها دكًّا ، وتحطمها تحطيماً

لقد انضمت مي الينا عاملة مجاهدة ، تسبق الصفوف وفي يدها قلمها ، وبين حنايا قلبها وفي القمة منها رأسها وتفكيرها ، ولكن أفقنا المحدود في الجهاد ضاق أمام عينيها البعيدتين في مراميهما وفي مداها . وعالمنا المحدود في حركتنا النسوية عجز عن أن يتسع لاصلاحها وآمالها وأدبها وشاعريتها ، فاتجهت الى ميادين الأدب والاجتماع يدفعها نبوغ خاص وعبقرية نادرة ، يهيء لها ذلك استعداد فطرى حببها به الطبيعة ، فاهترت لها أعواد المنابر خطيبة بارعة ومحاضرة لبقة . وعطرت كل نادٍ بشذا من أحاديثها . وتركت حيثما حلَّت أثراً طيباً . وأخذت مي الكاتبة تنهمر كتاباتها في الصحف وتتدفق خطبها على المنابر ، وتتوالى كتبها في سوق الادب مترجمةً مرة ، ومؤلفة أخرى . ولم تغفل مي حق جنسها ، وفرض اخواتها ، فكان للمرأة من انحائها الأدبية نصيب ، ولعل دراستها العميقة الممتعة ، المملوءة بكثير من النقصي والدقة عن وردة اليازجي ، وعائشة التيمورية ، وباحثة البادية (ملك حفني ناصف) لعلَّ تلك الدراسات التي نشرت في المقتطف وطبع بعضها مستقلاً في كتاب هي مظهر من مظاهر وفاء مي لبنات جنسها ، وحرصها على اظهار فضلهن أينما وجد . على أن مكان مي «الفتاة» في الادب ومحلها في الكتابة والتأليف لها يعلي شأن المرأة الشرقية عامة والمصرية خاصة . فهو مكان رفيع تغتبط به حركتنا النسائية وتعده دليلاً آخر ساطعاً على مكان المرأة

فلم يكن مجد مي لها وحدها ، ولم تكن شهرتها خاصة بها ولكنه مجد تفتخر به المرأة الشرقية ، وشهرة تتمتع بها كل ناطقة باللغة العربية

Digitized by Birzeit University Library

٦ — فسألت عصمتها : (كانت مي تميل الى الاحزان في كتابتها ويبدو ذلك في مقدمة كتابها الذي ترجمته عن الالمانية لفردريك مكس مولر . فهل كان الحزن طبيعة فيها أم عارضاً عليها ؟)

فأجابت : لقد عرفت ميًّا في ريعان شبابها وإبان نشاطها ، عرفتها والقوى الجبارة تتنازع جسدها وقلبها وروحها . وكنت دائمة قلقة عليها — خائفة أن تعصف بها تلك القوى العنيفة فتذبلها قبل أوانها ، أو تقضي عليها قبل حينها

وكنت أخشى أن هذه القوى الموهبة للصمّ الصلاب قد تؤثر في نفس مي اسوأ الأثر اذا ما رماها الزمان بنكبة ، أو ابتلاها بمحنة . وقد كان ذلك . فقد أصيبت مي بفقد والديها وكان فقدهما تباعاً — كأنهما كانا على ميعاد قريب — فتأثرت أبلغ التأثر ، واستسلمت الى الأحزان تطغى عليها وللهموم تأكل قلبها وللآلام المضنية المبرحة تعصف بها في كل لحظة وتلازمها في كل خطوة

وآثرت مي الاجتماعية المحبة للناس المتحدثة الى الجماهير ، أن تركن الى العزلة تجد فيها عزاءها ، وتستسلم الى الوحدة تلتمس فيها راحتها

واستأنست مي بوحشتها ، واجتمعت مي بوحدتها وعزلتها وكانت فذة في أحزانها ، غريبة في همومها وآلامها كما كانت فذة في عبقريتها وبين بنات جنسها

وظلت كذلك في هموم مقيمة مقعدة ووساوس باقية ثابتة ، تخاف من الهمس ، وتفزع من الشبح ، وتذعر من الانس حتى طغت عليها الاحزان ، واصطلحت عليها العلل — العلل القاسية المبرحة — علل العقل والجسد — ووقفت القوة التي كانت تمدها بالحيوية ، وجفت الينابيع التي كانت تغذيها بالماء ، وأظلمت الآفاق التي كانت تشع امام عينيها السوداوين النور والبهجة والضياء

وصارت كالزهرة لا شمس ولاماء ، ولا ضوء ولا هواء فذبلت وكان ذبولها أليماً ، وتساقطت اوراقها ورقة اثر ورقة

ولكن هذا الزهرة مايزال ممتضوعاً وأريج الزهرة مايزال عبقاً وسيظل المثقفون والمؤدبون ، والكاتبون والمفكرون يذكرون تلك الزهرة التي عوجلت قبل الاوان . وخطفت قبل الحين.

فاذا مروا بروضة من رياض الفكر ، أو حقل من حقول الأدب ، تعرفوا على مكان هذه الزهرة وقالوا (هنا مكان زهرة ذابلة ولكنها ما تزال فواحة الأريج)

Digitized by Birzeit University Library

حضرة صاحب العزة

الدكتور طه حسين بك

مراقب الثقافة العامة

في حفل تأبين مي وقف رجل متزن الخطوة ، هادىء الوقفة، يبدو على ملامح وجهه آثار حزن عميق وألم دفين

وقف هذا الرجل ، وكثيراً ما سمعناه على المنابر محاضراً من طراز رفيع ، وغوار عال ، وقف تلك الليلة من مساء ٤ ديسمبر يستهل الكلام بشعر عربي رصين

لم يكن هذا الشعر شعره ، ولم يكن الرجل في تلك الليلة الا راوياً أبياتاً أعجبته من ذي الرُّمة ، فراح يلقيها في أداء حسن ، والقاء متئد ، يخرج الحروف مخارجها ، ويعطي الكلمات قيمها . وقف هذا الرجل ينشد هذه الأبيات :

خليلي عُدَّا حاجتي من هواكما ومن ذا يواسي النفس الا خليلها ؟
ألَمّا بمي قبل أن تطرح النوى بنا مطرحاً او قبل بَيْنٍ يزيلها
فإلاَّ يكن الاَّ تملُّ ساعة قليلاً فاني نافع لي قليلها

وكثير من السامعين لم يعلموا أن هذه الأبيات لذي الرُّمة الشاعر الأموي ، وكثير منهم ظن ان الدكتور طه حسين انقلب شاعراً بعد أن رسخت في النثر قدمه وعلت في الكتابة مكانته

ولكن قليلاً من هؤلاء السامعين أدرك أن طه حسين ينشد هذه الأبيات الثلاثة في حفل مي ابنة القرن العشرين ، وهي أبيات قيلت في مي ابنة العصر الاموي

وقف الدكتور طه حسين في حفل تأبين مي يستعرض ماضياً جميلاً طويلاً ، حافلاً بنفيس الصور ، وبديع الأثر

وقف يصف كيف عرفها في الجامعة القديمة سنة ١٩١٣ حينما وقفت تعقب على كلمة أرسلها الشاعر الناثر جبران خليل جبران من نيويورك لتكريم الشاعر خليل بك مطران

وقف يصفها في اقبالها على العلم وإكبابها على الدرس ، والحاحها على طلب المعرفة من مظانها ، والحكمة من مواضعها

واعتذر الدكتور عن مجانبة التفصيل في الحديث عن مي يوم تأبينها لأن ذلك يقتضي درساً لم تهيَّأ له هذه الاجتماعات التأبينية والحفلات التذكارية التي يراد بها الوفاء والتذكر ، وارسال التحيات من القلوب المخلصة لتصل الى النفس المخلصة

Digitized by Birzeit University Library

ولقد كان الدكتور جميلاً في وفائه لمي ، نبيلاً في اخلاصه ، وكان منصفاً لها حين سجل حسنتين من حسناتها وأشار بنوع خاص الى أثرها في حياتنا الادبية : الاولى منتداها الذي كان ملتقى المثقفين ومجتمع المفكرين من أهل مصر وسوريا ، ومن أهل الشرق والغرب ، ومن رجال العلم والأدب . والثانية تأثرها بالمحاضرة التي القاها احمد لطفي السيد باشا في نادي المدارس العليا عن أبي العلاء وأخذها موضوع المحاضرة على انه موضوع جدير بالتفكير

وختم الدكتور طه حسين كلمته في تأبين مي بالابيات التي افتتحها بها ، وكرر البيت الأخير مرة ثالثة وهو

فالا يكن إلاّ تعلل ساعة قليلاً فأني نافع لي قليلها

***

..... وانتهى حفل مي ، وانصرف الناس بعد ما أدوا واجب الوفاء لفتاة كان من طبعها الوفاء لوطنها ولغتها وجنسها ، وانتقلوا من جوٍ كان يسوده الجلال وتخيم عليه الرهبة ، ويغشيه السكون الى جو امتلأ بالمنافشة والمجادلة . . أي الخطباء أجاد ، وأي الشعراء أصاب ، وأي النواحي من حياة مي أغفلت ، وأي المسائل أهملت ....

وتقدمت من الدكتور أصافحه باليد ، وأحييه باسم المقتطف ، وأذكر له اسمي ولا أعرف ان كان له ذاكراً أم ناسياً ؟ فألقى منه اللقاء الجميل ، والرد الجميل ، ويتفضل باجابة دعوة «المقتطف» الى الحديث ولكن يؤجله الى يوم يقل فيه الشغل ، ويتسع فيه الوقت وتواتي فيه أسباب الحديث

ويجلس الدكتور طه حسين بك في قاعة من قاعات الاتحاد النسائي ليستمع الى حديث من السيدة الجليلة هدى هانم شعراوي ، ويجلس بجانبه خليل بك مطران وبعض السيدات ، وأتخذ مكاني قريباً منهم لأسمع صوت طه حسين من قريب كما سمعته «من بعيد»

ليست صناعة الاحاديث مع الرجال — وخاصة كبارهم وأهل المكانة منهم — عملاً هيناً او أمراً يسيراً ، ولقد شرفتني «المقتطف» بانابتي عنها في الحديث مع لفيف من أهل الأدب والفضل ممن كانت لهم بمي صلات وذكريات

وليست ظروف التحدث مهيأة في كل وقت وفق رغبة الراغب ، وأمل الطالب ، فهناك قد تكون المشاغل والشواغل ، وهناك ايضاً قد تكون العقبات والحوائل ....

ولكن مشاغل الدكتور طه حسين لم تمنعه من التفضل بالحديث في الوقت الملائم

وأسلوب الدكتور طه حسين — سواء أمتحدثاً كان أم كاتباً — هو أسلوب السلاسة واليسر فلا يتكلف لفظاً ، ولا يتصنع عبارة ، ولكنه يجري على نحو من السهولة يظن القارىء أو

Digitized by Birzeit University Library

السامع انه مستطيعها، وينتهي الى غاية من السلاسة يخيل الى من يراها انه مدركها . فاذا دون ذلك اهوال

والدكتور طه حسين يتأبى على كل قيد ، ويمتنع على كل ارادة غير ارادته

وضعت له بضعة أسئلة تجلي بعض الغوامض من حياة مي ، وتفصّل بعض ما أجملهُ القائلون عنها ، فلم ترُقْهُ طريقة السؤال والجواب وآثر عليها طريقة الحديث الموصل والكلام المطلق ..... وهو في هذا يشبه خليل بك مطران الذي لم يلتفت الى اسئلتي المسلسلة ، وآثر ان يسمعني في ساعة وبعض ساعة حديثاً عن مي الشاعرة لم أقطعهُ عليهِ بسؤال ما . . .

كان الدكتور طه حسين من المعجبين بمي المترددين على « صالونها » وله في هذا « الصالون » ذكريات سيتحدث عنها فيما يلي من القول

وكان الدكتور يعجبهُ من هذا « الصالون » اتساعه لمذاهب القول واشتات الكلام وفنون الأدب ، ويعجبهُ منهُ أنه مكان للحديث بكل لسان ومنتدى للكلام في كل علم ، وملتقى للطوائف من غير تفريق . فلا تعالي بينهم ، ولا اختلاف فيهم ، بل هم أهل ندوة واحدة ألفهم الأدب ووثقت بينهم المعرفة وجمعتهم الحكمة يغدون ويسرون في أخاء تالد ، على اختلاف مذاهبهم وتباين مشاربهم ، وتفاوت مراتبهم . فهم كما قال أبو تمام

إن يُكْرِمطَرف الأخاء فإننا نغدو ونسرح في اخاء تالد
أو يختلف ماء الوصال فماؤنا عذبٌ تحدر من غمام واحد
أو يفترق نسبٌ يؤلّفُ بيننا نسبٌ أقمناه مقام الوالد

وكان أشد ما يغتبط له الدكتور طه حسين أنهُ وجد الطريق الى منتدى مي ميسوراً ، لم تحفهُ الأشواك ، ولم تدمِ من اجله الأقدام ... وصل اليه وهو طالب في الجامعة القديمة لم تنعقد له ألوية الشهرة . ولم تثبت له بعد منزلة الأديب . وفي هذا الحديث المتع الذي تفضل بهِ على « المقتطف » صور من حياة مي بعضها بهيج ، وبعضها مؤلم حزين

ولكن ميًّا قد ماتت كما ماتت سميّتها الأموية من قبل، وكما تموت « ميّات » بعد ، فأن البقاء لله ، ولأجسامنا الفانية الفناء والدثور ....

ولكن ذكرى مي ستظل خالدة ومصاحبة الأموات بالذكرى — ولو ان بيننا وبينهم جنادل وصفائح — هو نوع جميل من الصحبة الدائمة والعشرة الباقية وصفهُ الدكتور طه حسين نفسهُ بقوله : [وما أعرف شيئاً أوفى في العشرة ، وأحرص في المصاحبة من الموتى اذا كانوا أعزاء على نفوسنا ، وكانوا ينزلون في قلوبنا] . وفيما يلي حديث عزته : —

Digitized by Birzeit University Library

ظهرت مي في حياتها الادبية مظهرين مختلفين أشد الاختلاف وأثرت بهذين المظهرين نفسها في الحياة الادبية العربية تأثيراً عميقاً جداً ظهرت بعض صوره اثناء حياة مي وستظهر بعض صوره الاخرى بعد وفاتها بزمن قصير أو طويل. فأما اول هذين المظهرين فهو مظهر الأديبة البرزة التي لا تحتجب ولا تستخفي ولا تلقى الرجال عند المناسبات وحين تقتضي الظروف لقاءهم وانما تنظم الاجتماعات الادبية التي يشترك فيها الرجال والنساء اشتراكاً حراً سمحاً فيه كثير جداً من الرقي والامتياز. تنظم هذه الاجتماعات في بيتها وتشترك في كل اجتماع يشبهها اذا كان خارج بيتها. وليس من شك في ان الصالون الذي تستقبل المرأة فيه رجالاً يتحدثون فيما يتصل بالحياة العقلية من قريب او بعيد لم يكن جديداً في حياتنا العربية بل لم يكن جديداً في حياتنا المعاصرة. فقد عرف هذا القرن الذي نحن فيه صالوناً من هذه الصالونات على الاقل، كان بعيد الاثر جداً في حياتنا السياسية والاجتماعية. وهو صالون الاميرة نازلي رحمها الله. فقد كانت تستقبل في دارها بعابدين كبار المصريين والاوربيين. وكانت الاحاديث في هذا الصالون تتصل غالباً بالمسائل السياسية ومسائل الاصلاح الاجتماعي والديني التي كان الناس يشغلون بها في ذلك الوقت. وكان سعد وقاسم ومحمد عبده وحسن عبد الرازق وحسن عاصم يشهدون هذه الاجتماعات ويختلفون فيها ويشاركون فيما كان يدور فيها من الاحاديث. وكانت آثار ذلك تظهر في الحياة العامة لهؤلاء الناس. ولكن صالون الاميرة نازلي كان ارستوقراطياً ان صح أن الارستقراطية توجد في مصر، وهو على كل حال كان ضيقاً مغلقاً لا يصل اليه الا الذين ارتفعت بهم حياتهم الاجتماعية الى مقام ممتاز. ولم تكن الحياة الأدبية الخالصة تشغل الذين كانوا يختلفون الى هذا النادي

فأما صالون مي فقد كان ديمقراطياً او قل انه كان مفتوحاً لا يُرَدُّ عنهُ الذين لم يبلغوا المقام الممتاز في الحياة المصرية وربما كانوا يدعون اليه وربما كانوا يستدرجون اليه استدراجاً فيلقون الناس ويتعرَّفون الى اصحاب المنزلة الممتازة ويكون لهذا اثره في تثقيفهم وتنمية عقولهم وترقيق أذواقهم. وأنا اذكر أني انما اتصلت بصالون مي على هذا النحو بعد ان نوقشت رسالتي في ابي العلاء وشهدت مي هذه المناقشة وشهدت فيما يظهر بعض الحفلات التي أقامها لي الزملاء حينئذٍ وطلبت الى استاذها واستاذي لطفي السيد ان يظهرني في صالونها. وكذلك عرفتها في هذا الصالون وترددت عليها في أيام الثلاثاء الى أن سافرت الى أوربا. وقد رجعت الى مصر بعد سنة فأقمت فيها اشهراً ولاقيت فيها مي في ايام الثلاثاء كما كنت ألقاها قبل السفر. وكان الذين يختلفون الى هذا الصالون متفاوتين تفاوتاً شديداً فكان منهم المصريون على تفاوت طبقاتهم ومنازلهم الاجتماعية وعلى تفاوت أسنانهم أيضاً. وكان منهم السوريون وكان

منهم الأوربيون على اختلاف شعوبهم وكان منهم الرجال والنساء. وكانوا يتحدثون في كل شيء ويتحدثون بلغات مختلفة وبالعربية والفرنسية والانكليزية خاصة . وربما استمعوا لقصيدة تنشد او مقالة تقرأ او قطعة موسيقية تعزف او أغنية تنفذ الى القلوب . وقد أتيح لي ان أكون من خاصة مي بفضل الاستاذ لطفي السيد فكنت أتأخر في الصالون حتى ينصرف الزائرون وما أكثر الليالي التي انصرف فيها الزائرون جميعاً ولم يبق منهم الاّ الاستاذ لطفي السيد ومحمد حسن نائل المرصفي رحمه الله وأنا . وفي ذلك الوقت كانت مي تفرغ لنا وتفرغ لنا حرة سمحة ، فنسمع من حديثها ومن انشائها ومن عزفها ومن غنائها . ويظهر أني لن أنسى صوت مي حين تغنينا أغنية لبنانية مشهورة « ياحنينة » وتغنينا في اللغات المختلفة وفي اللهجات العربية المختلفة ايضاً

***

وقد اتصلت حياة مي على هذا النحو مؤثرة بهذه الاجتماعات المنظمة في البيئات المختلفة للادباء والمتأدبين والمفكرين ورجال الأعمال ايضاً . اتصلت هذه الحياة اعواماً غير قليلة وظهرت آثارها في كثير من انتاج هؤلاء الناس . وما اشك في ان صالون مي قد اتخذ مثالاً لصالونات اخرى فتحت ابوابها فيما بعد . فمي قد أحيت بهذا الصالون سنة عربية قديمة كما نقلت الى مصر سنة اوربية قديمة وحديثة فهذا هو المظهر الاول لحياة مي

***

أما المظهر الثاني الذي اشرت اليه فهو مظهر مي التي آثرت الوحدة وألحت على نفسها في العزلة وقد مضت في طريقها الى العزلة مضيّاً رفيقاً او قل انها تدرجت في هذه الطريق تدرجاً بطيئاً اول الأمر ولكنه سريع ملحّ آخر الأمر . أخذ ميلها الى العزلة يظهر بعد ان فقدت ابويها ، وبعد ان غمر الحزن نفسها المشرقة، ولكنها لم تقطع صلتها بالناس فجأة وانما قللت لقاءهم وتجنبت ما يدعو الى هذا اللقاء وأخذت لا تلقى الناس الاّ بميعاد يضربونه وتستشار المذكرات لتحديده . وأخذت المذكرات تبخل بهذا التحديد شيئاً فشيئاً حتى اصبح لقاء مي مقتصراً على اصدقائها الأدنين ، وكنت بين الذين شرّفتهم مي بهذه الصداقة فكنت القاها بين حين وحين فنستخلص لأنفسنا من الدهر واحداثه ساعة او ساعات نتحدث فيها ادباً وفلسفة جادّين حيناً ومازحين حيناً آخر . وكان سكرتيري ثالثنا في هذه الاجتماعات . وكان لنا رابع يحضرنا دائماً ولكنه لم يكن يفهم عنا . ولعلنا نحن كنا نفهم عنه كثيراً وهو ذلك الابريق الذي كان ممتلئاً دائماً من شراب الورد . والذي كنا نستسقيه غير مرة في هذه المجالس العذبة المرة . فقد كانت هذه المجالس مرة في كثير من الاوقات . ذلك ان مياً كانت في طور

Digitized by Birzeit University Library

الحزن اللاذع والالم المض والتشاؤم الذي كان يسرع اليها كما كانت تسرع اليه وطالما دافعت عنها هذا التشاؤم وطالما حاولت ان أرد عنها هذا الحزن المهلك ولكن لم أكن أدنو الى النجاح الا ليردني الاخفاق عما كنت أريد ردّاً عنيفاً . وكنت اريد ان استنقذ ميّاً من تشاؤم ابي العلاء كما كنت اريد ان استنقذها من الاسراف في التأثر برجال الدين . ولكن ابا العلاء ورجال الدين كانوا أقوى مني ومن غيري ايضاً . وربما كان أظهر شيء لزم حياة مي في هذا الطور من أطوارها حبها لحياة القدماء وآثارهم والحاحها في قراءة التاريخ وحرصها على زيارة الآثار والوقوف امامها صامتة مرة ومتحدثة اليها أو متحدثة عنها مرة أخرى . وقد ألححت عليها غير مرة في الخروج من دارها للرياضة فكانت تمتنع وتأبى ، ولكنها قالت لي ذات يوم إن كنت تريد أن أخرج فاصحبني الى الهرم فاني أحب أن أشهد هذه الآثار وان أقف موقف عبرة واتعاظ امام ابي الهول . وقد صحبتها الى هذه الآثار غير مرة وكانت احاديثها عن الروح المصري القديم من أروع الاحاديث وأعمقها تأثيراً في النفوس . ثم تتخفف ميّ من علاقتها الاجتماعية شيئاً فشيئاً ويصعب علينا حتى افناعها بشهود الاجتماعات التي كان يعقدها نادي القلم . ويحتمل الاستاذ خليل ثابت مشقة عظيمة في افناعها بحضورها بعض هذه الاجتماعات . وتسافر ميّ وتعود وقد قطعت صلاتها بأكثر الناس وكنت منهم . واذا هي تؤثر ان تلقاني في كتبي وفيما انشر من الفصول . ثم يأتينا نعي ميّ ذات صباح

هذه العزلة التي آثرتها ميّ في آخر حياتها لم يقتصر أثرها على ميّ وحدها وقد ذاقت مي مرارتها وبلت الآماء ولكن الناس كانوا يعرفون هذه العزلة وكانوا يعرفون ما كانت مي تحتمل فيها من الألم وكانوا يألمون لها ويضيقون بها ولكنهم كانوا يفكرون فيها ويلتمسون لها ألوان الحلل في حياة ميّ العقلية وفي المثل الأدبية التي كانت تنظر فيها ميّ كثيراً

وقد يكون من الغريب أن نلاحظ أن ميّاً بهذين المظهرين المتناقضين من مظاهر حياتها قد أحيت سنّة « خرقاء » وهي التي قال فيها الشاعر القديم

تمام الحج أن تقف المطايا على خرقاء واضعة اللثام

فلم تكن زيارة القاهرة تتم دون لقاء مي ، كما أحيت سنة ابي العلاء بعزلتها تلك . ومن المحقق ايضاً ان الادب العربي القديم قد انتفع بسنة خرقاء كما انتفع بسنة ابي العلاء . ومن المحقق ايضاً ان الادب العربي الحديث قد انتفع وسينتفع بهذين الطورين من اطوار حياة مي . رحمها الله

Digitized by Birzeit University Library

حضرة الاستاذ

عباس محمود العقاد

عضو مجلس النواب ، ومجمع فؤاد الأول للغة العربية

للاستاذ العقاد مقام معلوم في عالم الأدب ، وتمتاز كتبه وكتاباته بعمق التفكير ، وغزارة الاطلاع ، وهو على كثرة انتاجه في التأليف ما يزال يتحف الصحف الأدبية بمقالات تعجب الذين يتابعونها ، جمعت الى قوة الأسلوب وشدة أسره ، الوضوح والنصاعة في التعبير عن الفكرة وتصويرها

وكان الأستاذ كثير الصلات بميّ ، عرفها من قرب ، وأعجب بذكائها وألمعيتها ، وعنده عنها معين من الذكريات لا ينضب ، وفيض لا يغيض . فحديثه عنها حديث المنبيء الخبير . وما احتاج في خلال الاسئلة الى أن يكد ذهنه في استحضار ماضٍ بعيد ، او الاستشهاد بحادثة معينة . وقد خيل اليّ وأنا أصغي اليه انه استعرض ماضي ميّ لحظة فلحظة ، وأن صور الأيام كانت تمر بخاطره سريعة متعاقبة

ويحتفظ العقاد بكل ما كتبت « مي » من مؤلفات ولقد ردت اليه — حين ألحت عليها العلة ، واصطلحت عليها الهموم — جميعَ رسائله اليها ، كما ردت الى غيره ممن راسلوها رسائلهم . ولقد أطلعني الاستاذ على جملة هذه الرسائل ولم يطلعني على تفصيلها . أما رسائلها اليه فقد ردها اليها وهي محفوظة مع ما وجد عندها من مخلفات وآثار . ولعله موفٍ بما وعد من الكتابة عن « مي » فهو أولى الناس بالكتابة عنها ، وأجدرهم بالتحدث عن أدبها وفنها ، وعبقريتها ونبوغها ، وأقدرهم على تصويرها في نديها وهي تدير الأحاديث ، وتوجه الكلام

يؤمن بعض المشتغلين بالآثار ، المنقبين في الصخور الصمّ ، وفي الرمال الصفر ، الكاشفين عن الكنوز المكنونة والجثث المدفونة ، بان للموتى لعنات قد تنصب على الكاشفين وسخطات قد توجه الى النباشين الحفارين فتصيبهم منها المكاره او تدركهم بسببها المعاطب

وأنا أومن بان للموتى — الى ذلك — رحماتٍ تمسّ النار اللاحقة فتبرد وتلمس الصخور القاسية فتلين ... وان لهم نفحات من عالم الغيب ، ومن وراء الحجب ، تخترق الاستار وتمزق الغشاوات فتصل الى أرضنا تنشر فيها المحبة ، وتشيع فيها الرحمة ، وتصل الوداد المقطوع والحبل المصروم ، وتؤلف بين القلوب وتجمع بين البعيد والقريب ...

وكذلك كانت « مي » . . . أحسن الله اليها . فقد أتاحت لي ان أرى « العقّاد » بعد

Digitized by Birzeit University Library

غياب سنوات . . . وان استأنس الى « العقّاد » بعد وحشة سنوات . انها « كرامة » من « مي » . وفضل من رئيس تحرير المقتطف . ونبل من « العقّاد »

ولقد عرّفتني « مي » الى العقاد من جديد ووصلتني روحها به عوداً على بدء ، فاذا بي في داره في « هليوبوليس » كما كنت بالأمس البعيد في مكتبه « بالبلاغ الأسبوعي » واذا بي أستمع الى صوت «العقاد» الذي طال عليّ العهد به

واذا بالعقّاد يجيب عن كل سؤال من أسئلة وضعتها له عن « مي » واذا بي ألمح من ثنايا كلامه ومن خلال حديثه ألم الحسرة ، وحُرَق اللوعة لفقد « مي » . فهو يتحسر على مي في نديها ، وعلى الحلو من حديثها ، والشجيّ من لحنها . ويتذكر « ميّا » في التماع ذكائها ، ونافذ رأيها ، واستواء حجتها ، واعتدال فكرها . ويعجب أين ذهبت هذه البشاشات ، وولت هذه القسمات والطافاً ذلك الشعاع وجفت هذه الورقات وطويت هذه الصفحات ؟

لا تعجب أيها الاستاذ ! فمثلك من روى الاخبار وعرف الأسرار ، وقد أجبتَ أنتَ نفسُك عن هذا السؤال حين قلت في شطر حافلٍ بالحكمة والحسرة من قصيدتك في رثاء « مي »

« كل هذا في التراب آه من هذا التراب »

***

١ — سألته : (ما أحب كتب مي الى نفس الاستاذ : فأجاب بما يأتي) :

(باحثة البادية) يمثل اكبر جانب من تفكيرها وطبيعتها وأسلوبها . واعتقد أن الآنسة ميّ كاتبة معتدلة بعيدة عن التطوح في الأثيريات والخياليات . فهي أقرب الى المحسوس الدانى منها الى الخيال البعيد ولذلك كانت في حياتها كلها أقرب الى المحافظة وأدنى الى التمسك بالتقاليد . فالفرق بعيد بينها وبين كاتب مثل جبران خليل جبران فهو يمثل الخياليات ويسبح في الأثيريات . وليس في كتاباتها جنوح الى الغموض او ميل الى اصطناع الأسرار على النحو الذي يشاهد في كتابات بعض أدباء المهجر وخاصة جبران

وثما يلاحظ انها كانت تعجب بجبران . وكانت تناقشني في نقدي اياه ، فكنت أقول لها ان اعجابك هذا انما هو اعجاب المناقضة لا اعجاب المماثلة . وأعني بذلك أن الانسان اما أن يعجب بصفة فيه موجودة في غيره على شكل أعظم وأوسع . وإما أن يعجب بصفة ليست فيه ولكنه يرجو أن يتصف بها ، أو يكمل صفاته باضافتها اليها . فمي في وضوحها واستقامة تفكيرها وبعدها عما سميناه بالأثيريات والخياليات هي في الواقع نقيض جبران — وان كنت لا أعني قدحاً في هذا الكاتب الذي له ولا شك منزلته في الأدب ومزاياه في الكتابة

Digitized by Birzeit University Library

٢ — فسألته : (في الطبعة الاولى من ابتسامات ودموع تصرفت مي في ترجمة الكتاب عن فردريك مكس مولر الالماني وفي الطبعة الثانية تقيدت بالاصل معنىً وتعبيراً كما تقول هي نفسها في المقدمة . فهل كان لهذا العدول رأي خارج عنها ؟ أم فعلته مختارة ؟ وما رأيكم في تصرف الكاتب فيما يترجمه ؟)

فكان جوابه : لا اذكر أن هناك نقداً وجه الى الترجمة الاولى . أو لعلي قرأت نقداً وغاب عني . انها أعلم انها رحمها الله ، كانت شديدة التبرم بالنقد وكانت تتقيه كثيراً ولو تبين لها أنه صادر عن نية حسنة . فاذا حدث أنها تعرضت لنقد في سبيل التصرف في الترجمة فاني أعتقد أن هذا لما أعلمهُ من مزاجها ، وحذرها كان للعدول عن هذا التصرف أو لاستدراكه اذا أتيح لها أن تستدركه

أما رأيي في تصرف المترجم بالترجمة فهو أنه جائز على شريطة أن المؤلف يقبل هذا التصرف لو عرض عليهِ . وليس غرضي بالطبع أن يتم العرض فعلاً ، ولكني أريد أن خير تصرف هو الذي يرضاه المؤلفون ويعتقدون انه لا يخرج بالمعنى عما أرادوا

٣ — فسألته : (اذا كانت الطبيعة الجميلة قد استهوت ميًّا كما تحدثت هي كثيراً عن ذلك في بعض كتبها ، فهل تعرفون لها قبل اضطرابها الاخير حادثاً خرجت فيه عن العالم المدني الصاخب الى العزلة الوحيدة الدائمة في أحضان الطبيعة كما فعل (ثورو) و(لويل) في أميركا . وكما فعل (وردسورث) في منطقة البحيرات بانكلترا ؟)

فأجاب : كل ما أعلمه انها كانت تتحاشى ان تخرج الى الطبيعة منفردة لما عسى ان تتعرض لهُ بسبب ذلك من اجتراء بعض العابثين ، وان كانت تغتنم كل فرصة آمنة للرياضة في ضواحي القاهرة وبعض المنازل القريبة منها . كان حبها للطبيعة يتجلى في هيامها بمناظر الغروب أو مناظر السحب وهي مشرفة عليها من حجراتها في بيتها ، حتى كانت تؤثر ان تجلس في هذه الشرفات أيام الشتاء اذا لم يمنعها المطر الغزير من الجلوس فيها

وكانت تتمنى ان تزور مصر وصعيدها الأعلى خاصة لتستمتع بما تتخيله من روعة المناظر الطبيعية فيها ، وكثيراً ما سألتني أن أصف لها تلك المناظر ، وان أريها اياها في رحلة

Digitized by Birzeit University Library

شتوية كانت — رحمها الله — تفكر فيها كثيراً ولا تظفر من الوقت بما يمهد لها أسبابها ، على ان حبها للطبيعة كان محدوداً بما فطرت عليه من الاحجام والاحتراس ، ولولا ذلك ما انقطعت عن غشيانها كما يغشاها كل محب مشغوف بها

٤ — فسألته : (على ذكر الدفاع عن الديمقراطية الآن والمحنة التي تمتحن بها أمتها نسألكم رأيكم في الفصل الذي كتبته مي في كتابها المساواة)

فأجاب : أذكر اننا تناقشنا في الديمقراطية مرات ولم نكن على وفاق في كل مرة . وان كان خلافنا على هذه المسألة أقرب الى الفكاهة منه الى الجد والتباين الصحيح في الآراء . فمن ذلك — وكنت أرشح نفسي للانتخاب — أنها أشارت الى حق المرأة في الانتخاب للمجالس النيابية . فقلت لها : انني لو ملكت الامر ما سمحت للمرأة بهذا الحق . قالت ولم ؟ فأجبتها لاعتقادي ان المرأة بفطرتها غير ديمقراطية فأنكرت ذلك اشد الانكار ، وعددت اسماءها تسرى لو أعطيت أنت حق الانتخاب — وأنت مي التي لا يشبهها كثيرات من النساء — ثم ذهبت الى الصندوق وذهب اليه مرشحان أحدهما يسير على قدميه والآخر يركب سيارة فخمة من أنفس طراز فهل تظنين انك تفضلين المرشح السائر على قدميه ، أو تفضلين المرشح صاحب السيارة الفخمة ؟ قالت : — لعلي أفضل الأول اذا كان مستحقاً للتفضيل . قلت : — بل لعلك تفضلين الآخر على كل حال . . . ! فتظاهرت بالغضب . والتفتُّ الى السيدة والدتها وكانت تسمع حديثنا . أسألها : ما رأيك يا سيدتي فيمن تؤثره كريمتك بالتفضيل ؟ وأنت أعلم بها مني ؟

فضحكت وقالت : الحق ان كل امرأة تفضل راكب السيارة على السائر الى صندوق الانتخاب بقدميه . وهنا عادت الآنسة مي تقول : — ولم تظنون ان المرأة مخلقة حقاً في هذا التفضيل ؟ ألا يمكن أن يرجع هذا الى بداهة فيها توحي اليها ان تختار من تستقر على يديه الامور ويبتعد بالامم عن القلاقل والازمات ؟

وانتهى الحديث بيني وبينها بقولي : ان حكم السراة والنبلاء كان هو في أكثر العصور مثار القلاقل والثورات . وما قامت ثورة قط الا على أثر حكم يطغى فيه هؤلاء النبلاء

وفي مرة أخرى كان قيصر روسيا مقبوضاً عليه في انتظار المحاكمة او النفي الى مكان بعيد . وكانت مي تشايع القيصر وترثي له وتنعي على خصومه أن خلعوه واعتقلوه . فكنت أقول لها : انني لا أود الألم والشقاء لانسان ، ولاسيما اذا كان هذا الانسان بين أهله وأسرته . ولكني كلما ذكرت القيصر منفياً لم يسعني ان أنسى رجلاً عظيماً مثل « دستويفسكي » وهو

Digitized by Birzeit University Library

منفي في سجون سيبريا . ولم يسعني ان أنسى ألوف العمال الذين قتلوا أمام قصر الشتاء بأيدي حراس القياصرة . فان مصائب الكبار لا تنسينا مصائب الصغار . وربما كان الكبير مسؤولاً عن مصيبته ، ولم يكن الصغير مسؤولاً لا عن مصابه ولا عن مصاب الآخرين . وختمت حديثي معها — رحمها الله — بسؤال لم أجب عليه وهو : هل تظن ان خصوم القيصر سيرحمون العمال أو يعاملونهم خيراً من معاملة حراس القيصر ؟ فقلت : علم ذلك عند المستقبل . وعلى هذا النمط كانت تجري مناقشاتنا في موضوع الديمقراطية بحيث لا تتجاوز هذه المناوشات الفكاهية الى التعمق في البحث والمبالغة في الاستقصاء

٥ — فسألته : (كان لمي بعض المؤاخذين على افرنجية أسلوبها وتساهلها في اختيار اللفظ العربي الصحيح . فما رأيكم في هذا ؟)

فأجاب هذا الجواب الموجز : لا أظن أنها وقعت في خطأ لغوي كانت تستطيع اجتنابه

٦ — فسألته : (أشرتم في مقال لكم في إحدى المجلات إلى براعة مى في ادارة الحديث فهل نستطيع ان نسمع منكم المزيد في هذا الموضوع ؟)

فكان جوابه : لا يحضرني مثل لذلك أدلّ على البراعة من ادارتها الحديث في مجلس حضره نحو ثلاثين كاتباً وأديباً ووزراً للتشاور في الاحتفال بالعيد الخمسيني للمقتطف ، وكان اجتماع هذا المجلس عندها في إبان المنازعات السياسية التي وصلت بكثير من الكتّاب والأدباء الى حد التقاطع والعداء . وكان منهم من حضر هذا المجلس وهم متشيعون الى شتى الأحزاب منتمون الى مختلف الهيئات . فقضينا عندها ساعتين نسينا فيهما ان في البلد أحزاباً او منازعات سياسية بفضل براعتها في التوفيق بين الآراء والأمزجة ، وقدرتها على توجيه الحديث الى أبعد الموضوعات عن الخلاف والملاحاة . وما أحسب ان أحداً غير مي قد استطاع هذا الذي استطاعته في تلك الايام ، حتى أذكر أنني قلتها وأنا أودّعها تلك الليلة : لقد كنت يا آنسة في هذا المساء تحملين معزف (أرفوس)

٧ — فسألته : (ذكرت مى في مقال لها بالمقتطف عدد مارس سنة ١٩٢٧ عن يتهوفن ان همومه الكثيرة واليأس الذي حاق بنفسه قد ساعدت على ضعضعة ايمانه . وقد كانت مى كئيبة طول حياتها يائسة كسيرة القلب في أواخر أيامها ، فما أثر ذلك كله في ايمانها ؟ وهل زعزعت الحوادث ايمانها ؟)

Digitized by Birzeit University Library

فكان جوابه: على نقيض ذلك. كانت ميّ في أيام مرضها أشد ايماناً بدينها ولهجاً بموضوعات الدين من سائر أيامها . ومن شواهد ذلك أنها بعد عودتها من رحلة ايطاليا المشئومة قصت عليّ حديثاً جرى بينها وبين جماعة من الفاشيين كانوا يفخرون بانهم ورثة الدولة الرومانية القديمة فكان أكبر ما نعتهُ على تلك الدولة امامهم أنها هي التي اضطهدت السيد المسيح . ولا شك أن القدح في دولة كبيرة كالدولة الرومانية القديمة لمثل هذا السبب لا يدل على ضعف في النزعة الدينية ، بل يدل على اشتغال الذهن بها اكبر اشتغال . ولا أذكر مناقشة جرت في مجلسها بين ملحد ومؤمن الا كانت مي في جانب الايمان بتفكيرها وشعورها على السواء

٨ — فسألته : (هل اطلعتم على شيء من كتبها المكتوبة بغير اللسان العربي ؟ وهل تعرفون ترجمة لكتابها «زهرات حلم Fleurs de Rêve » المكتوب بالفرنسية ؟)

فأجاب: لم يترجم كتاب زهرات حلم الى العربية. ولا أذكر اني قرأت لها شيئاً بغير اللسان العربي

٩ — فسألته : (ما الذي تعرفون عن احتراس مي في حياتها الاجتماعية ؟)

فأجاب : يخيل اليّ أن احتراسها المفرط لازمها من بدء شبابها ثم زادته الحوادث رسوخاً وتشعباً حتى كانت في بعض الأوقات لا تطمئن الى احد ولو كان من أقرب المقربين اليها. وكثيراً ما دعيت الى حفلات بيتية عند صديقاتها من كبريات الأسر فكانت في اكثر الأحيان تجيب بالاعتذار ، لأنها كانت تكره الحفلات الراقصة على الخصوص مع اجادتها الرقص ودفاعها عنهُ فيما كتبته من الرسائل عن باحثة البادية . ويخيل اليّ أنها كانت مطبوعة على التمسك ومصابرة الآلام فضلاً عما لقيتهُ أحياناً من شدائد نفسية تملي لها في شعور العزلة والشك والاحتراس. وما أظنها كانت تنطلق في حريتها لو سلمت من تلك الشدائد لأنها فيما أرى قد فطرت على الاحتجاز والتحفظ . وربما ورثت شيئاً من هذا عن والدتها التي كانت شديدة التمسك بدينها . وكانت لا تطيق أحياناً أن يذكر أمامها أسماء أعلام الفكر ودعاة الحرية الدينية. وقد كانت تسخط مثلاً على رينان كما ذكرناه بلهَ الثائرين من أمثال «ڤولتير» و« كارل ماركس» وأحرار الفكر المحدثين .

١٠ — فسألته عن مذكراتها ورسائلها

فأجاب بما يلي : كانت لها مذكرات وتعليقات أدبية لم تطبع ، وبعض قصائد تترجمها من اللغات الاجنبية والقديمة خاصة . ولديها رسائل أدبية لكثير من أعلام الأدب العربي. ولكنها ردت هذه الرسائل الى أصحابها قبل اعتكافها واشتداد المرض عليها

ولهذه الرسائل شأن عظيم ، لأنها لو جمعت وطبعت لكانت تحفة أدبية رائعة

Digitized by Birzeit University Library

حضرة السيدة الفاضلة

مدام ايمي خير

١ — سألتها : (ما كان أثر الفجيعة في مي في نفسك ، وكيف تلقيت نعيها ، وهل كنت على علم بما حدث لها قبل وفاتها بأيام ؟)

فأجابت : كان لمصاب مي أثر بالغ في نفسي ، وحزن عميق في قلبي ، وكان بودي لو قدر لمي أن تموت موتة غير هذه الموتة ، وفي ظروف غير هذه الظروف

ان وفاتها صدمة قاسية ، ولا شك أن مثل مي في مقامها الأدبي ومقامها الاجتماعي ومكانها في التأليف والكتابة ليعتبر موتها على هذه الصورة فجيعة قاسية . وهنا تنهدت السيدة الفاضلة ثم تابعت الحديث قائلة : شعرت بألم المصاب لمي ، وأحسست به احساساً عميقاً وبودي لو استطاع كل انسان في مصر أن يمد لها في أواخر أيامها حياة أهنأ من حياتها التي كانت تحياها

تسألني كيف تلقيت النبأ ؟ نعم لقد قرأته في الاهرام في الصباح المبكر . وكان نعياً مفاجئاً ، وخبراً مباغتاً . وبلغ من ذهولي له وتأثري به أن تحدثت في المسرة (التلفون) مع خليل بك مطران لعلّ عنده من وفاتها نبأ ، وسألته كيف ماتت « مي » هذه الموتة المفاجئة بعد أن قدّرنا لها الراحة والهدوء في بيتها الصغير الهادىء

ولقد كنا جميعاً — نحن أصدقاءها والمتصلين بها — نعلم أنها كانت في بيتها الجديد الصغير لا تحب لقاء أحد . وهي حالة غريبة من حالات النفس طرأت عليها . فلم نشأ — لذلك السبب — أن نثقل عليها بالزيارة أو نزعجها بطلب المقابلة . مؤثرين أن نتركها في هذه العزلة التي اختارتها بيدها الى أن يأذن الله في شفائها مؤملين ومعللين نفوسنا بالآمال القوية أن ميّا ستعود سيرتها الاولى ، واننا سنعود الى لقائها .... ولكن الآمال خابت والرجاء ضاع حينما فوجئنا بوفاتها واختطاف الموت لها من بيننا . وما اتصل بعلمي شيء مما جرى لها قبل وفاتها بأيام ولا وقع في خاطري شيء منه ، لأننا تركناها لعناية الله وحماية الأقدار

٢ — فسألتها : (ما هي النواحي التي كانت تعجبك من مي ؟)

فأجابت : لقد كنت أود ميّا والشاعر يقول حَسَنٌ في كل عين من تود . وما من ناحية الا كانت موضع اعجابي من مي

أعجبني منها ذكاؤها المتوقد، وذهنها المتيقظ. وكانت كل حاسة من حواسها أو جارحة من جوارحها تنمّ على ذلك الذكاء. فمينا‌ها اللامعتان وتعبيرها الحار، ولطف اشارتها وحسن حديثها، كل اولئك نمّ على ذكائها كما نمّ ريح المسك على المسك

تستطيع أن تؤثر فيك بكلامها، وتنقلك الى صفها ولو كنت من الملحفين في الخصومة الممعنين في المجادلة والمعارضة

وكان فيها الى جانب علمها وفنها جوانب كثيرة وحواشٍ رقيقة من اللطف والدعة، واللين والرقة. فكانت تحترم أمها وأباها، وتقف أمامهما كما يقف الطفل في حضرة والديه

فما قصرت لهما في حق، ولا ضيّعت لهما واجباً. وكان للأسرة عندها محل كبير من الاعتبار وموضع من التقدير، فظلت محافظة على المبادىء الأسرية والتقاليد العائلية من غير ان يطوّح بها التفرنج الى الخروج عما رسمته لنفسها من مبدإ، وما وضعتهُ من خطة

وكانت مي متواضعة، وأعظم ما أعجبني منها هو ظهور تلك الصفة فيها على الرغم من علمها وأدبها، فما غرها العلم، ولا زهاها الأدب، ولا نفخ في أوداجها كونها كانت قبلة الوزراء والعلماء والأدباء. فكانت مي هذه — مي العالمة المتمكنة، ومي الاجتماعية المفكرة — تتحدث مع الجاهل فتنزل الى مستواه، من غير ان تشعره بجهله. وبالجملة كان لمي أدب الرجولة القوية ولطف الأنوثة الوديعة

أنا معجبة بها، أنا معجبة بها (وكررتها السيدة الفاضلة كثيراً)

٣ — فسألتها: (كيف كانت صداقة مي لبنات جنسها؟ وهل كان للمرأة مكان في نديها كما كان للرجال؟)

فأجابت: كانت مي لطيفة مع النساء، كما كانت مع الرجال، فهي لطيفة على اختلاف الحالات، ولم تتولد بيني وبينها صداقة كما تظن، ولكنها صلة وثقتها عندي اعجابي غير المحدود بها. كانت مي محبة لجنسها النسائي، وأكبر برهان على ذلك كتابتها عن عائشة التيمورية، وباحثة البادية، ووردة اليازجي. ألا تحمل كتاباتها عنهنّ طابع الحب لجنسنا؟ ألا ترى في ذلك وفاءها لنا؟ ولعلك تعجب اذا عرفت ان مرات ترددي على نديها لم تتجاوز ثلاثاً أو أربعاً. ولكن أصحابها من الرجال كانوا أصحابي، فكان حديثهم عنها يؤكد لي ما رأيته في مرات لقائي إيّاها. والذي أعرفه ان نديها كان محط الرحال لأهل العلم والفضل والحكم من الرجال. فلم يكن يتردد عليه ويختلف اليه من النساء الاّ قليل — على ما أعلم — وأذكر منهنّ حرم حضرة صاحب السعادة شكور باشا

٤ — فسألتها : (ما رأيك في كتابتها بالفرنسية ؟ وهل قرأت لها كتاب « زهرات حلم » ؟)

فأجابت : كل ما أعلمه لها بالفرنسية كتابها « زهرات حلم » وهو كتاب عاطفي ، وفيه كثير من الطموح والجدة والشباب ، وقد خلا من التكلف بقدر ما امتلأ من الشعور . ويمكنك ان تقول انه كتاب فتاة صغيرة شابة الآمال ، فتية القلب ، شاعرية الروح

وأول ما كتبت مي بالفرنسية ، وتعليل ذلك بسيط ، فقد تعلمت في مدرسة عين طورة بلبنان اللغة الفرنسية قبل العربية . فكان طبيعيًّا ان تكتب بما تعلمت . فلما أتممت دراستها فهمت ان هذا الطريق الذي اختير لها خطأ ، وأنه من الخير لها والبر بوطنها ان تدرس العربية . فتركت الفرنسية مرة واحدة وبدأت تتعلم لغة العرب — لغة الآباء والاجداد

وفي ذلك الحين قابلت لطفي «باشا» السيد ، وسمعها تتكلم وتدافع عن الحركة النسائية الشرقية دفاع المؤمن بما يقول ، فتقدم سعادته لتدريس اللغة العربية لها . والحق الذي أنا مستوثقة منهُ ان الاستاذ لطفي باشا السيد هو مدرسها في العربية ...

وظلت مي تكتب العربية وتمارس مدارستها ، الى ان مات أبوها اولاً — المرحوم الياس زيادة — صاحب المحروسة ، وماتت أمها ثانياً ، فرجعت مي الى اللغة الفرنسية تكتب بها وتقرأ فيها . وأظن تعليل ذلك سهلاً يسيراً ، فانها لما مات ابواها تذكرت أيام نشأتها وعهد طفولتها ، فربطت الذكريين بما تعلمت من الفرنسية وحنت الى الكتابة بها . وأذكر لها في ذلك الحين مقالاً طريفاً في هذا اللسان تخاطب به عصفوراً صغيراً

وكانت الفرنسية أحب اللغات الاجنبية التي حذقتها الى نفسها ، فكانت تكتب بها بعض رسائلها أكثر من أية لغة أخرى . أما العربية فلها فيها رسائل تعد ثروة ادبية كبيرة

وعجيب ان تتحول مي هذا التحول السريع من الفرنسية الى العربية ، حتى لكان العناية الالهية اختارتها لاتقان العربية بعد ان قطعت في الفرنسية شوطاً بعيداً ، واجتازت مدًى كبيراً . وليس ذلك في الحق بعجيب على مثل مي في حبها للشرق والشرقيات والعروبة

ويخيل اليَّ انها كانت في ثوبها الفرنسي متعبة قلقة ، وكأنَّ وازعاً نفسيًّا كان يعاتبها على خلع رداء العروبة ، فأجابت الداعي حين دعا وخلعت ذلك الثوب الفرنسي الذي لم يوائم مزاجها ولم يوافق طبعها ولبست ثوب العروبة فازدان بها وازدانت به

ولقد بلغ من حب مي لشرقيتها ، وحفاظها على عربيتها انها كانت تقدم لضيوفها — وما كان أكثرهم — شراب الورد أو فنجانة القهوة على طريقة شرقية محببة ، فلم تجار (المستغربين) أي عشاق الغرب في اتجاههم ، ولم تذهب مع العصريين المتفرنجين في سبيلهم

Digitized by Birzeit University Library

٥ — فسألتها: (هل كانت مي تعالج نظم الشعر بالفرنسية واذا كان ذلك فهل تذكرين لها بعض القصائد؟ وهل عرفت لها رأياً في الشعر العربي قديمه وحديثه؟)

فأجابت: نعم: وعندها مخطوطات لقصائد فرنسية. وكانت تنوي طبعها قبل وفاتها. وأنا واثقة ان هذا الديوان الذي لم يطبع يفوق ديوانها الأول «زهرات حلم» قوة وشاعرية لأنه نتيجة نضجها، وثمار تجاربها واختباراتها بينما الأول كان أول عمل لها في شبابها حيث الفكر محدود والتجارب قاصرة. ولا أعرف لها رأياً خاصاً في الشعر العربي ولم يقع لي من حديث معها أوحديث عنها شيء من رأيها في هذا الموضوع، ويخيَّل اليَّ انها كانت تحب شعر شوقي بك. وأذكر انها خاطبتني مرة بأننا كلنا نسعى في طريق واحدة وإلى غاية متحدة، وهي ان نعمل — من العربية — لغة قواماً بين لغة العلماء ولغة الشعب. وهي بذلك الاتجاه في التفكير تعتبر في طليعة الزعامة من النهضة الحديثة

وتحضرني الآن ذكرى طيبة عن ديوانها «زهرات حلم» فقد اشتريته لأساهم في مساعدة جماعة خيرية. فلم تكن مي تبغي من ورائه مكسباً ماديّاً. أو تريد ربحاً ماليّاً. ولكنها عاطفة الاحسان تمثلت فيها فصرفتها عن شغل المادة وعبادة المال. وهنا تبهدت السيدة الفاضلة ثم قالت (لقدكانت حياة مي قصة كاملة، قصة مملوءة بالمآسي والمفاجع - كما كان موتها مفجعاً)

٦ — فسألتها: (كانت مي باعترافها في بعض كتبها كئيبة حزينة. فما أثر تلك الكآبة في نظرتها الى الحياة؟ وهل كانت طيبة الأمل في الجنس البشري أم خائبة الأمل فيه؟ وهل وجدت في غير الكتابة والتأليف عزاء لها عن أحزانها؟؟)

فأجابت: ان سبب حزن «مي» هو عزلتها في الحياة ووحدتها وانفرادها. لقد كانت مي كقمة الجبل الأشم وهي ضاربة بعيداً بعيداً في عنان السماء. لقد كانت شاعرة بسموها وذكائها، شاعرة بتفردها في عالمها. فعاشت منعزلة في عالم خلقته من ذكائها وصنعته من مواهبها

ألا ترى الى قمة الجبل الشاهق كيف استغنت بسموها في آفاق السماء فرضيت بوحدتها؟ لقد كانت مي كذلك ... ولكنها مع ذلك لم تحتقر الآخرين بل كانت تراح الى احاديثهم، وتطمئن نفسها الى نفوسهم وتجد لذة في مجالستهم

ولا تنس الناحية العاطفية الجنسية في شقاء مي، فلقد كانت فتاة تأمل أمل الفتيات، وتحلم أحلام البنات. ولكن الأقدار باعدت بينها وبين الزوج الذي يسعدها، والبيت الذي يؤنسها — وأعني بيت الزوجية — والاطفال الذين يجعلون للحياة قيمة من حولها

نعم حرمتها الأقدار من ذلك كله. وهو شاق على كل امرأة، عسير على كل فتاة

Digitized by Birzeit University Library

سألتها مرة عن صحة أبيها وأمها فقالت في ضجة فهمتُ منها كل شيء وأدركت كل معنى « ليس لهما غيري وليس لي غيرهما.... » . آه .. كلمات قصيرة تحمل معاني كبيرة. كانت حياة مي لوالديها ، وكانت نسمات الحياة في مي لوالدها ، وكان مجد مي لوالديها ... وكان تعبيرها لي في هذه الجملة القليلة الضئيلة الألفاظ نوعاً من الشكوى بحالها . وهي شكوى لم تطل على حسب ما يصنع الشاكون والشاكيات . من المؤكد أنها لم تكن سعيدة في حياتها، ولم تكن هانئة حتى على المجد الذي أحرزته ، والعرش الذي احتلته . ان في الحياة معاني عميقة . وكلما بعد الانسان عن فهم هذه المعاني وادراكها على وجهها الصحيح زادت متاعبه وتضعضت أيامه وساعاته

لقد ضحت مي بكثير في حياتها وما أعظم ما ضحت به . ضحت بشبابها اللامع الوضيء وذكائها المتوقد الملتهب . وقدمتهما الى الحياة قرباناً غالياً ...ولعلك تذكر الأسطورة الرومانية القديمة عن الربة فستا Vesta والبنات اللائي كنّ معها ضحية الشباب واسمهن في الأسطورة (Vestals) فستال . لقد كنّ ضحية الشباب النضير ، فلم يتزوجن ولم يتعلق قلب واحدة منهنّ بهوى، وقضين حياتهنّ منشغلات باشعال نار مقدسة سماوية وامدادها بالحطب الجزل حتى لا تنطفىء فان في انطفائها خراباً عاجلاً لمدينة روما ... وكذلك كانت مي — لقد كانت كواحدة من هؤلاء الفستال .... كانت تجد في الأدب تسلية وملهاة ، ولم تجد فيه تعزية ، وفرق كبير بين التسلية والتعزية . أي شيء كان يعزي ميًّا عن آلامها المشتعلة ؟ وأيُّ وسيلة كانت تجد فيها مي العزاء عن آلام الزمان والمكان ؟ . (وهنا تمنت لي السيدة الفاضلة ألاّ يحكم عليَّ في الحياة بما يدعو الى السلوان والعزاء — فلها مثل ما تمنت)

لقد كانت الكتابة تشغل ميًّا عن آلامها وأحزانها ، مسكينة مي ! ولو رأيت جنازتها لرأيت البساطة ممثلة فيها، كان هناك أحمد لطفي السيد باشا — وكنت معه — وأنطون بك الجميّل وخليل مطران بك وبعض أصدقائها . لقد كنت راكبة مع لطفي السيد باشا في سيارة خلف نعشها . ولما وصلنا الى الدير البعيدة الساحقة . . دير الأبدية التي لا لقاء بعدها بأجسامنا — تلك الديار التي تفرق منا كل يوم حبيباً ، وتخطف عزيزاً — لما وصلنا الى هنالك دنونا من قبرها ولحدها الأخير ، فوقف عليه لطفي السيد باشا وذرف السخين من العبرات حينما تلقوها من بين أيدينا ليسلموها الى سكون الموت ووحشة القبر ، ويودعوا جسدها التراب

وهناك ... في ديار الفناء . ومقابر السكوت سكتت مي الخطيبة ، وعاشت مي الخالدة. فما سمعنا لها صوتاً ولا سمعنا أحداً يتكلم على قبرها ، ولا ارتفع صوت في الكنيسة لتأبينها..

لقد كان السكون مخيماً ، والصمت شاملاً فما استطاع لسان ان يحل عقدته . وزاد في أسى الجنازة وحزنها منظر الشمس الغائبة في ذلك اليوم . لقد كان كل شيء حزيناً ، وكل جو

Digitized by Birzeit University Library

يُشعر بالأسى والحزن . لقد كانت موتتها قاسية ، وكنا نأمل لها خاتمة غير ذلك

٧ — فسألتها : (ماذا قرأت لمي في العربية ، وما أحب كتبها الى نفسك ؟)

فأجابت : يؤسفني أنني لم أقرأ لها في العربية كتاباً ، وأرجو ان يتاح لي ذلك ، أما في الفرنسية فقد كانت تعجبني بكل ما تكتبه ، وأنا أشبهها بمدام دي ستايل في اثنتين ذكائها المفرط ، ويقظتها الحادة

٨ — فسألتها : (ما هي ميول مي واتجاهاتها نحو الشرق والفكرة الشرقية)

فأجابت : ميّ هي أول امرأة شرقية رزقها الله علماً واسعاً واحاطة تامة بالعلم الغربي والتربية الغربية ، فقد مكن لها تمكنها من بضع لغات أجنبية ومكنت لها أسفارها وثقافتها الخاصة من هذا العلم الواسع ، ولكنها تركت السير في هذا الطريق بمحض ارادتها وخالص اختيارها . وكان تركها قوياً شديداً . وآثرت ميّ اختيار طريق الشرق واعتزت بذلك اعتزازاً كثيراً . ما كانت ميّ شرقية فقط بل كانت متحمسة للشرق متعصبة له . ولكن هذا الحب الشديد لشرقها وشرقيتها ما كان ليعمي عينها عن عيوب الشرق . فكانت تعرف مواطن ضعفه ، ومواضع وهنه ، وتأمل ان يقوى ويشتد . وتستطيع ان تقول ان أحلام ميّ وآمالها كانت كلها للنهضة الشرقية . وهذا الذي أقوله لك وأنقله عن مي لم أقرأه في كتاب من كتبها ، ولكني عرفته من خلال ملاحظتي لحياتها ومتابعتي لأسلوب معيشتها

وكانت مي تجد في مفاخر الشرق القديم وفيما سلف من آثاره مجالاً واسعاً للتعبير عن جلاله ... وكانت سعادتها في ان تبقى دائماً « امرأة شرقية » . وكانت حريصة على هذه النسبة الى الشرق معتزة بها دائماً . وما رأيت في حياتي انساناً — ذكراً كان او أنثى — أحب الشرق كما أحبته مي ، ولا تعلق بأسباب هواه كما تعلقت ...

وكان واحداً من همومها وآمالها ان تترجم الكنوز الغربية الى لغتنا العربية لانها كانت ترجو من وراء هذا النقل في الافكار ، والاتصال في الآراء ، سعادة للشرق في آماله ، وتقدماً له في نهضته . وكان ينشيها الكبرياء بشعورها القومي ، ولكنها تود ان يتقرب الشرق من الغرب ليفيد من ثقافته ويكتسب من حضارته . وكانت معجبة بأن تقول بملء فيها : « أنا شرقية » بكل ما تحتمله هذه العبارة من معانٍ سامية واسعة . وكان مما يزيد هذه الناحية ظهوراً في ميّ أنها كانت ساخطة ببعض الذين يميلون الى المظاهر الغربية . فكانت تمقت تلك المظاهر الكاذبة وترثي للذين يخرون وراءها ، او يتشبثون بها . وكأنها في كل لحظة من لحظات حياتها وفي كل لون من ألوان عيشها ، وفي كل بقعة من الارض زارتها ، وفي الشرق اذا حلت ، وفي الغرب اذا اغتربت ، كأنها كانت تقول : أنا من الشرق والى الشرق أعود

Digitized by Birzeit University Library

حضرة صاحب العزة

انطون بك الجميل

رئيس تحرير الاهرام والعضو بمجلس الشيوخ

مَن في مصر يجهل مكانة انطون بك الجميّل الادبية ؟ ومن في البلاد العربية لم يصل الى أذنيه صوت أنطون الجميّل حين يعلو منبراً ، أو يصطنع حديثاً ، أو يكتب مقالاً ؟

وعجيبٌ جدًّا أن يتناول انطون الجميل الادب فيكون فارس حلبته ، ويدخل معترك الصحافة فيكون ابن بجدتها ، وينزل في ميدان الاقتصاد فيكون خبيراً في الأرباح والأعشار حريصاً على الدرهم والدينار ، ويلج باب السياسة فاذا هو البارع المحنك ، واللبيب المجرّب ، والذكي الألمعي . له ضلعٌ في كل مسألة ، ومشاركة في حل كل معضلة ، فهو طلاع الثنايا ، وأخو النجدات ، وصاحب الغمرات . تراه في « الاهرام » في الصباح والمساء ، وفي الغدو والآصال ، دائباً لا يمل ، متحركاً لا يسكن ، نشيطاً لا يفتر . يكتب كلمة او يقرأ مقالاً ، او يستعرض كتاباً ، او يصغي الى متحدث ، او يتحدث الى مصغٍ ، او يقصد في رجاء ، او يدعى الى حفل ، او يلقي على « محرّر » أمراً ، او يأخذ منهُ خبراً ... وهو في ذلك كله لا يفارقه لطفه ، ولا تزايله بشاشته ، ولا ينبو عنه حلمه

ورقة أنطون الجميل في أحاديثه هي رقته في كتاباته ومقالاته ، فهو يتخير في الحديث اللفظة المسولة ، والكلمة المقبولة ، كما يتخير في الكلام حين يكتب وحين يخطب . وقد يجتمع في مكتبه — في ساعة واحدة — طوائف شتى مناحي العيش ، مختلفو نواحي الثقافة ما بين أديب شاعر ، وكاتب ناثر ، وصحافي بارع ، ونائب محترم ، وشيخ جليل ، ووجيه في قومه او مقدم في عشيرته ، وعالم كبير ، وموظف خطير فتراه يستمع اليهم حيناً ، ويسمعهم حيناً آخر ، ويتلطف مع كل جالس ، ويهش لكل قادم . وهو في خلال ذلك يلقي الأمر الى « محرّر » ويتلقى الخبر من « مخبر » ويتحدث الى « السرّة » تارةً مع « صاحب الرفعة » وأخرى مع « صاحب الدولة » ... ثم يعود الى وصل ما انقطع من الحديث مع زائريه ، فاذا هو عالمٌ بدقيقه وجليله ، محيطٌ بجملته وتفصيله

كثر ما زرته وهو في شغل ، او طرقت عليه باب مكتبه وهو في عمل ، وقد أنساني سابق لطفه ، ومأنوسٌ بشرهِ أني أشقُّ عليهِ بالهجوم ، او أثقل عليهِ بالدخول ، فذا هو الرقيق اللطيف ، المتبسم المتهلل ، فأعتذر له ببيت قديم لا أشك في طربه بهِ وارتياحه له وهو:

Digitized by Birzeit University Library

فلا تعتذر بالشغل عنا فانما تناط بك الآمال ما اتصل الشغل

أخذت منهُ موعداً للحديث عن ميّ الى المقتطف ، وتمنيت على الله ان أظفر بهِ وحيداً ، وأستأنس به منفرداً ، وتمنيت على الله اكثر من ذلك ألاَّ يعرض خلال الحديث ما يشغله ، او لا يستحدث من الأمور ما يصرفه . فاذا الأماني هباء ... واذا المنى سدى ... واذا انا بالشاعر الكبير والاستاذ الجليل علي بك الجارم يجلس معه . فسلمت وسلم الجارم تسليم البشاشة . وبدأت السؤال « والجميّل » يجيب ، والجارم « يعلق » . وانا بين الأديبين الكاسب المستفيد والرابح الغانم . وتمَّ الحديث . وأعلن « الجارم » انتهاء الامتحان ! وقد سماه — في نكتته البارعة — امتحاناً . وما هو الاَّ حديث عن « ميّ » وكانت رحمها الله حديثاً حسناً لمن وعى ... ويخرج « الجارم » من جيبه قصيدة طويلة في رثاء المرحوم الشيخ الجليل الاستاذ عبد الوهاب النجار ، ويشرفني بأن ألقيها فاذا فيها هذا البيت في وصف الدنيا : —

اذا أعطت فقد أعطت قليلا ! ولا يبقى القليل ولا الأقل

والجارم بك هنا يقصد عدم بقاء المادة الجامدة والاجسام الفانية الزائلة ، أما حديث الفضل والحسنات ، والروح والمعنويات فهو باقٍ لا يدول ، خالد لا يزول كما قال الشاعر : —

تدول أحاديث الرجال وتنقضي ويبقى حديث الفضل والحسنات .

وكذلك يبقى حديث « ميّ » الفاضلة المحسنة ...

***

١ — مسألته : (ما هي أولى ذكرياتكم عن المرحومة مي وكيف نشأت الصلة الادبية بينكم وبينها)

فأجاب : عرفتها وكلانا ناشيء في الأدب ، ولم يَعْدُ ذلك معرفة الاسم ، وقراءة بعض الفصول مما كتبته مي ووقعت لي قراءته . ثم أهدت اليَّ — وكنت يومئذٍ أصدر مجلة الزهور — أول كتاب أخرجته أو أول ديوان من الشعر نظمته . ولم يكن ذلك الكتاب عربيًّا . ولكنه كان أعجميًّا « فرنسيًّا » غير ذي عوج

وأسمته زهرات حلم Fleurs de Rêve . وهو اسم كما ترى فيهِ نضارة الزهر وقد رصَّعه الندى بالدر ، وفيهِ سعادة الأحلام وقد صحَّت

ولم توقع مي ديوانها هذا بصريح اسمها ، ومشهور لقبها ولكنها وقعته باسم مستعار هو (أيزيس كوبيا) . ولاحظت — رحمها الله — في اختيار ذلك الاسم مطابقته في المعنى لاسمها العربي . فايزيس الاهة مصرية قديمة كانت أمَّ الطوروس ، وهي تقابل « ماري أو مريم » أم المسيح عليهِ السلام ، وكوبيا كلمة لاتينية معناها الزيادة والكثرة ، وهي تقابل اسم أسرتها

«زيادة» . ومن هذا الأصل اللاتيني جاءت الصفة Copieux بالفرنسية و Copious بالانجليزية

وأتبعت مي مديحها الأولى الى (الزهور) بمقال عن الفريد دي موسيه ، فنشرت المقال في المجلة ، وكتبت كلمة عن ديوان شعرها جاء فيها : —

«عرف قراء العربية الكاتبة الأديبة « مي » مما نشرته من الروايات الجميلة والمقالات الشائقة والابحاث النفسانية الدقيقة في جريدة « المحروسة » . وقد اتحفتنا بمقالة لطيفة عن « الفرد ده موسيه » نشرناها في غير هذا المكان من هذا الجزء

« وامامنا الآن كتاب شعر فرنسي رقيق ، في ذيله بضع صفحات نثرية جميلة تأليف « ايزيس كوبيا » وايزيس ومي هما شخص واحد ، والقلم الذي حبّر المقالات والروايات العربية ، والريشة التي حاكت رد هذه القصائد الفرنسية ، تحملهما يد واحدة ، ويملي عليهما فكر واحد. والكتاب مجموعة ازهار عطرية نبتت في رياض الاحلام الجميلة ، وهي مهداة الى روح « لامرتين » شاعر القلوب الحزينة ، وهذه الروح المتألمة ترف على كل صفحة من صفحاته وتجعل الكاتبة تقول في قصيدة «هل هي شاعرة ؟» ما معناه : البكاء والرأفة والحب والألم هذه هي صفات الشاعر

وقد ظهر من الموضوعات التي طرقتها الكاتبة انها لا تصف الا ما ترى ، ولا تعبر الا عما تشعر به . فجاءت منظوماتها صورة حقيقية لما يشغل فكرها ويحرك قلبها، ولذلك انت تشارکها عند تلاوة اشعارها في هذه العواطف أيّا كان رأيك في القالب الذي سبكتها فيه. فلا تتمالك من ان تصبو معها الى مصر ونيلها وآثارها وسهولها ، وتحن معها الى لبنان وجباله وأوديته . واذا كانت « ايزيس كوبيا » شاعرة في نظمها فقد وجدناها أشعر منها في تلك الصفحات النثرية التي ختمت بها «أزهار احلامها » حيث لم تعد مقيدة بقيود القافية والوزن ، وكثيراً ما تكون الازهار المنثورة أجمل من الازهار المنضودة »

وكان مقالها الأول في «الزهور» باكورة توالى بعدها اثمر الجني . ووسمتها من المطرجاء بعده الغيث المنهمر ، فتابعت نشر الفصول التي أذكر منها ، ذكرى بعلبك ، والنحى ، ودمعة الروح ، وكيف نقيس الزمان الخ ما نشر هنالك. تلك أولى ذكرياتي عن مي ، وذلك مبدأ الصلة الأدبية بيننا

وكان في منتصف عام ١٩٢٥ أن نشرت (مي) دعوة الى الاحتفال بعيد المقتطف الخمسيني بعد أن أثارت هي نفسها المناقشة في جعل هذا التكريم للمقتطف مظاهرة أدبية كبيرة في الشرق باشتراك الأمم الشرقية فيه ، وقد لبى نداءها ، وأجاب داعيها نفر من أهل العلم والفضل أذكر منهم الدكتور محمد حسين هيكل بك (باشا) وصاحب الفضيلة السيد مصطفى عبد الرازق (باشا) وتوفيق رفعت باشا وأحمد لطفي السيد (باشا) ، والمرحوم احمد بك شوقي امير الشعراء والمرحوم السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار، والاساتذة عباس محمود العقاد وابرهيم المازني وسامي الجريديني

Digitized by Birzeit University Library

وادجار جلاد . واجتمعنا الاجتماع التمهيدي الأول في منزل مي ، وألقت علينا خطبة في وجوب التكريم ووجوب اشتراك الامم الشرقية والاخوان البعيدين في المهجر فيه

وكانت لها في اول اجتماع الكلمة الاولى ، وأذكر من كلماتها قولها (يتهمون المرأة بأنها تحب ان تكون لها الكلمة الأخيرة دواماً ، فدفاعاً عن بنات جنسي قلت أنا الكلمة الاولى ، لتغث اللثغة الاولى ، ولتكن الكلمة الحكمة الحصيفة النهائية لحضراتكم ايها السادة الرجال)

ووافق سعادة احمد لطفي السيد باشا (بك يومئذٍ) على كلمة مي ، وتألفت اللجنة من صفوة الرجال وخيرة العلماء والادباء . وشرفتني بأن عهدت اليّ في تنظيم الحفل وتنسيق العمل مع الآنسة مي ، فقمنا بهذا العمل معاً ، وقدر الله النجاح ليوبيل المقتطف ، وتمّ الاحتفال على صورة كرمنا فيها الاخلاص في العلم ، والثبات والتضامن في الجهاد الادبي . ولا شك في ان نصيب مي في تكريم المقتطف مما لا ينسى وأن طال به الزمن . ومنذ ذلك الحين توثقت العلائق بيني وبين مي ، واستحكمت الصلة الادبية بيننا ، فقد عرفت فيها — في خلال تنظيم الحفل — نشاطاً نادراً ، وجهداً عجيباً . وما رأيتها — مع ما اقتضاه ذلك التنظيم من عمل وسهر — اشتكت نصباً ، او ملت تعباً ، او وهنت لها قوة ، أو سكنت لها حركة

٢ — فسألته : (هل كانت مي تحتفي بالادباء في ناديها احتفاءها بالوزراء ورجال السلك السياسي ، أم كان لهم عندها مقام ثانوي الشأن ؟)

فأجاب : كان نادي مي مثال الاندية الأدبية الراقية ، فكان الصدر فيه للأدباء ، والمحل الأول للعلماء ، أما رجال السلك السياسي واصحاب المناصب الكبيرة فكانوا يغشون نديها ويطرقونه على الغالب بصفة كونهم يسايرون الحركة الفكرية والأدبية ، ويهتمون بما جد فيها من جديد . أو ظهر فيها من تطور . وكانت مي في الحفل الحافل من زوارها ، وفي هذا المزيج المختلف من روّاد مجلسها بارعة في توزيع الكلام ، لبقة في توجيه الحديث وفسح المجال أمام كل زائر ليقول كلمته او يدلي برأيه أو يذهب في الجدال مذهبه فلا يشعر أحد في هذه الاجتماعات انه غريب على المجلس أو دخيل فيه . ولعل الجميع يذكرون الأبيات التي قالها المرحوم اسماعيل باشا صبري

روحي على دور بعض الحي هائمة كظامىء الطير توّاقاً الى الماء
ان لم أمتع بمي ناظريّ غداً أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

٣ — فسألته : (هل شغلت الاحداث السياسية يوماً ما الآنسة مي عن الادب ام شغلها الادب كل أيامها عن السياسة ؟)

Digitized by Birzeit University Library

فأجاب :— لم تشغل السياسة ميًّا قط عن الأدب ، وكانت تتحاشى الخوض في غمارها أو الدخول في معتركها . ومع ذلك كانت تقرأ معظم الصحف السياسية ، وتتتبع أخبار السياسة وتساير تطوراتها فاذا جرَّ الحديث في ناديها الى السياسة وانساق الزائرون في تيارها ، وانتقل الكلام من دولة الآداب الى دولة الأحزاب ، رأيت ميًّا وقد تحولت الى الاصغاء ، واتجهت الى الإنصات وأعرضت عن الكلام جانباً . فاذا ما تناولت الاحداث السياسية في كتاباتها تناولتها من حيث أثرها في الحركة الفكرية والنهضة القومية لأنها كانت كثيرة الاعتزاز بشرقيتها

٤ — فسألته : (ما هي أجمل الصفات التي أعجبتكم من مي كفتاة مثقفة لنعرضها على فتياتنا المثقفات)

فأجاب : جمَّل الله ميا بصفات كثيرة ووهبتها الطبيعة بسخاء ، ولعلَّ ما يجمل بفتياتنا المثقفات ان يأخذنه عن مي شغلها بالدرس والتحصيل من غير اهمال واجباتها الأخرى ، والعمل الدائم على استكمال ثقافتها من جميع مناحي النشاط الفكري ، والتمسك بعاداتنا وتقاليدنا وأخلاقنا الشرقية على كثرة ما كانت عليه من مسايرة الحضارة الغربية والاطلاع على مظاهرها

ولعلَّ هذا الحفاظ من مي على تقاليد الشرق وتمسكها بعاداته يبدو متناقضاً مع ثقافتها الأجنبية الواسعة ، ولكن ليس بين الاثنين تناقض ، فقد طغت فكرة الشرق على تفكيرها فألزمتها بعادات أهلها وتقاليد قومها . فهي لم تدرس ثقافة الغرب لتنسى قومها ، ولم تطلع على حضارة الغرب لتتخلى عن مقومات قوميتها وخصائص شرقيتها

٥ — فسألته : (للآنسة مي مقال عنوانه « كن سعيداً » ترى فيه السعادة في الشباب والهرم ، وتراها في الغنى والفقر وفي الصحة والمرض . فهل كانت مي سعيدة على العلات واختلاف الحالات؟)

فأجاب : هذا سؤال تصعب الاجابة عنه لأن ميًّا لم تكن لتكشف الستار عن مطويات نفسها ومكنونات قلبها بسهولة . وهل عرفت أنت يا صديقي انساناً كان سعيداً على العلات واختلاف الحالات ؟ وهل يظل الانسان انساناً اذا لم يتألم ويشق ؟ على انه قد تكون في الشقاء لذة كما تكون في السعادة . وما قيمة الحياة اذا جرت على نظام واحد ، ونسق رتيب؟ وأين إذن حلاوات الجدة بعد الحرمان ؟ ولذاذات الهدوء بعد ثوران ؟ وقد يكون الانسان سعيداً في هرمه كما يكون في شبابه . ألم يقل النفري :—

خلقت ألوفاً لو رجعت الى الصبا لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

٦ — فسألته : (هل كانت ثقافة مي آتية من اطلاعها على الادب الحديث ومتابعتها

Digitized by Birzeit University Library

للحركة الادبية المعاصرة؟ أم استكملت عناصر ثقافتها بدراسة الادب العربي القديم؟)

فأجاب: الثقافة عند أمثال مي الذين يقرأون ويطالعون كثيراً متعددة المصادر. على انه يمكن القول اجمالاً إنها كانت أكثر شغفاً بالاطلاع على الأدب الحديث ومسايرة الحركة الفكرية والأدبية المعاصرة عند مختلف الأمم الشرقية والغربية

ولا يعني ذلك أنها اهملت القديم، فقد طالعت كثيراً في أدب الأغريق والرومان — أدب أثينا وروما. وكانت متتبعة الأدب العربي الحديث وخاصة أدب المهجر

٧ فسألته: (هل كانت مي ممن يغرهن الثناء ويعجبهن الاطراء؟ وهل كانت تزهى بما تكتب أو تعجب بما تنشىء؟)

فأجاب: — دعني أطرح عليك سؤالاً بدوري: —

هل تعرف أنت يا صديقي احداً لا يستطيب الثناء، ولا يستلذ الاطراء، ولا سيما الأديب اذا رأى انه يضرب على وتر قلبه فتهتز له أوتار القلوب، ويترجم عن عواطفه فتتحرك له عواطف الآخرين

ان في ذلك اكبر تعزية للكاتب، وأعظم اجر يتقاضاه عن عنائه الدائم وجهده المتواصل وليله الساهر وصباحه الباكر. واذا كان يتألم فألمه لأنه لم يوفق الى ابراز فكره وشعوره كما يريد. غير ان هذا الرضى وهذه الغبطة يجب ألاّ يبلغا مبلغ الغرور، ويصلا الى حد الاختيال. ولم تكن مي ممن الغواني اللاتي قال عنهن شوقي بك (والغواني يغرهن الثناء)

٨ — فسألته: (ما رأيكم في رسائل مي)

فأجاب: — رسائل مي يجب الاحتفاظ بها لأنها نوع جميل من أدب الرسائل في الأدب العربي ففي الأدب الفرنسي رسائل لأمثال فلوبير وفولتير وغيرهما. وفي هذه الرسائل تستطيع دراسة الكاتب اكثر من دراسته في مؤلفاته. وعندي لمي بضع رسائل أعتز بها لأنها أثر باق من آثارها. ولقد رأيت فيما رأيت من مخلفاتها ظرفاً خاصاً برسائل ولي الدين يكن

ورأيي أن تجمع رسائلها الى من اتصلوا بها، ورسائل المتصلين بها اليها، وتنشر في كتاب خاص، ففيها ولاشك ثروة كبيرة، وتراث أدبي نفيس

رحم الله ميّا، لقد كانت على اطلاع واسع الحدود؛ فسيح المعالم، وكانت شخصيتها تثب مستقلة من خلال أفكارها وكتاباتها. فما قلدت كاتباً، ولا حاكت مؤلفاً، ولكنها ترجمت خلجات نفسها، ووحي ضميرها، وسر شعورها. وكانت رفيعة في نقدها، رقيقة في مخالفة رأي غيرها. فما آذت شعوراً، ولا جرحت احساساً

حضرة صاحب العزة الدكتور

منصور فهمي بك

مدير دار الكتب المصرية

الدكتور منصور بك فهمي مدير لدار الكتب المصرية ، تلك الدار التي اجتمعت فيها كنوز الفكر العربي ، وانتهى اليها مذخور الآداب ، ومتناول الأفكار ما بين مطبوع ومخطوط . وقد كان الدكتور قبل ذلك أستاذاً في الجامعة المصرية وله تلاميذ كثيرون استفادوا بعلمه ، وانتفعوا بأدبه . وله مكان ملحوظ في عالم الفكر العربي ، وهو بغير شك — الى جانب ناحيته الفلسفية — من زعماء الادب في العصر الحديث

وقد أشار الدكتور تشارلس آدمز مؤلف كتاب « الاسلام والتجديد في مصر » اشارة طيبة الى الدكتور منصور فهمي في خلال كلامه عن الجيل المعاصر من المحدثين . وأشار الى كتابه « خطرات نفس » بأنه مقالات تكشف عن خلق ورقي ورعاية للدين وتهكم بالمحافظة الجامدة واحترام لحرية الفكر ولحق الفرد في استخدام مواهبه العقلية . عرف الدكتور منصور فهمي كثيراً عن مي ، وقرأ كتبها ومقالاتها ، وأعجب باثنتين فيها : أسلوبها المصقول وشرقيتها المتحمسة . والحديث الى رجل مثله — في إيمانه بما يعتقد . ومصارحته بما يرى . وفي متانة خلقه وتقديره للقيم الاخلاقية العالية — مما يحلو على الأذن ويطيب على القلب

وفي كل اشارة من اشاراته في عرض الحديث ، وفي كل كلة من كلماته قوة كامنة .. فهو محدّث قوي الايمان بما يقول ، شديد الثقة بما يذهب اليه . يمضي في الحديث أول ما يمضي على فطرة سمحة جميلة وطبيعة سهلة لينة ، لا يُبهم عليه لفظ ، ولا يشكل عليه تعبير ، ولكنه قد يضطر أحياناً الى الوقوف وقفة قصيرة ليبحث عن كلة مناسبة او لفظة موافقة او للعدول عن تعبير الى تعبير ، وهنا يرتفع صوته ويزداد قوة حتى لتحس ان كل جارحة من جوارحه تتكلم ... وكان حديث الدكتور معي طويلاً لذيذاً ، قطعته فترة طويلة لصلاة الجمعة . فاذا بنا ننتقل من مكتبه في دار الكتب الى مسجد جماعة الشبان المسلمين التي لها من جهاده نصيب . واذا بنا أمام الله في خشوع المؤمن ، واستسلام المسلم ، واذا الدكتور يجلس الى

Digitized by Birzeit University Library

ما بعد الصلاة في المسجد ليستمع الى كلمة سواء يقولها واعظ ديني

ثم تطول الكلمة ويطيل الواعظ .. وقد يمل بعض السامعين ، وقد ينصرف بعضهم وينتشرون في الارض يبتغون من فضل الله ... الا منصور فهمي . فهو باقٍ وأنا معه حتى يفرغ الواعظ من عظته وينتهي من كلمته فيتقدم اليه الدكتور ويهنئه على حسن توفيقه . ونعود بعد الصلاة نستأنف الحديث عن «ميّ» في ركن مشمس من أركان القاهرة .. وهناك في ذلك الركن البعيد يفيض الحديث ، وينتقل من مسألة الى مسألة ، ومن سؤال الى سؤال ، ولكل سؤال عند الدكتور جواب ...

***

سبحان الله ! كلمة سمعتها من صديقي الاستاذ احمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة الغراء وكنا ضيوفاً على الدكتور منصور بك في بيته الجميل بالريف في رهط من العلماء والأدباء . ونودي — بعد النداء على مائدة كريمة سخية — لصلاة العصر ، فاذا الدكتور منصور يتوضأ ، واذا بنا نستعدّ جميعاً للوقوف في صفوف مستوية خلف أحد الشيوخ الأجلاء

***

وبعد الصلاة يلتفت اليَّ أخي الاستاذ الزيات قائلاً « سبحان الله ! . منصور فهمي الذي أثارت رسالته في جامعة السوربون عن المرأة في الاسلام ثائرة الناس عليه ، يقف للصلاة ، ويحرص عليها في حينها فلا يجزىء عنده في الصلاة القضاء عن الأداء »

فأرد عليه قائلاً « ياسيدي ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء »

وفي الساعات الطويلة الممتعة التي قضيتها مع الدكتور منصور فهمي بك للتحدث الى قرّاء المقتطف عن « ميّ » ذكرت كلمة الزيات وقد تردد في أذني صداها فقلت : سبحان الله : منصور فهمي الذي قضى في فرنسا بضع سنوات ، وشاهد الغرب ، وتعلّم على أساتذة الغرب ، ودرس فلسفة الغرب ، وقرأ كثيراً من كتب الغرب ، يعود الى الشرق الروحاني السامي روحانيًا سامياً ، ويؤمن بمثله العالية ، وقيمه العظيمة . ويرجع الى الشرق رجلاً محافظاً في تجديد ، مجدداً في حفاظ ، فيتحدث عن شرقية «ميّ» وعن محافظتها ، وعن اعتزازها بشرقيتها فكأنما كان يتحدث عن نفسه ، وعن شرقيته ، وعن حفاظه

***

كان حديث منصور بك فهمي صدًى لأخلاقه القوية ، ورجعاً لروحه الشرقية المعتزة بكل ما في الشرق من مثل عالية ، وفضائل سامية ،

Digitized by Birzeit University Library

١ — سألته : (ما رأيكم في مي الكاتبة ، ومي الصحافية ومي المحاضرة ؟)

فقال : انني أعدُّ الطريقة التي جرت عليها ميّ في كتابتها مما يصح أن يكون مثلاً للكتابة الراقية . لأن ميًّا كانت تمكّن لما تكتبه بشتى الافكار العالية ، والمعاني الشريفة التي خلصت لها من ثقافة عريضة واسعة ودراسة طويلة جادة . ولم تكتف ميّ بالفكرة المتمكنة ، والمعنى الدقيق والرأي المنخول ، بل كانت تعنى فوق ذلك باختيار الألفاظ الملائمة ، والعبارات الموائمة لتتساوق هذه الالفاظ المتآلفة المتجانسة في سلّم موسيقية تتردد في اذن السامع أو القارىء رنيناً موقّعاً ، ولحناً مؤتلفاً ، فلا يحسّ نبوًّا في لفظ ، أو خشونة في تعبير

ولقد كان لهذا الأسلوب المتميز ، المختارة الفاظه ، المنمقة عباراته ، جرس جميل في أذن السامع ، ووقعٌ حسن في نفس القارىء وكثيراً ما كانت توفق ميّ في هذا السبيل

ولقد أعجبتُ بالآنسة محاضرةً كما اعجبت بها كاتبة ، فقد كانت في ذلك المضمار مجلية . ولا أعدو الحق اذا قلت أنها كانت محاضرة من أرقى طراز وأعلى غرار . ولعل أسباباً كثيرة اصطلحت على تفوقها في ذلك الميدان ، فقد كان لها من عذوبة صوتها ، وحسن ادائها ، وحلاوة القائها ووسامتها وحسن سماتها معين على ذلك . وكانت تميزها حين تقف للخطابة في محفل أو المحاضرة في جمع ، ثقةٌ بنفسها ، واعتدادٌ بشخصيتها ، فما عرفت أنها تهيبت منبراً ، أو خشيت موقفاً ، أو غشيتها سحابة من جبن أو جلتها غمامة من خوف . بل كانت دائماً الواثقة الشجاعة

أما ميّ الصحافية فلا علم لي بهذا ولم يُتح لي أن أختبرها محترفة للصحافة أو مبرزة في فن هذه الصناعة ، فانا أعتقد أن الصحافة فنٌ خاص له مقتضياته وأساليبه

٢ — فسألته : (هل تذكرون عن مي الطالبة بالجامعة المصرية القديمة ما يصح أن يكون مثلاً للطالبة بالجامعة المصرية الحديثة ؟)

فقال : أود لو كان عندي عن ميّ الطالبة بالجامعة نبأ أقصه عليك ، فقد يسرني أن لو أتيح لي ، أن أكون أستاذها في ذلك الحين وأن تكون تلميذتي ، ولكنني كنت بعيداً عن الجامعة في ذلك الوقت (فقد كان عزته عضواً بالبعثة المصرية في فرنسا ولما عاد بعد اتمام دراسته وانجاز رسالته لم يتصل بالجامعة مباشرة)

٣ — فسألته : (هل تعتقدون ان ميًّا نجحت في أداء رسالتها الادبية ، واذا كان ذلك فما هي أسباب نجاحها ؟)

فأجاب : أعتقد ان النجاح كتب لميّ في أداء رسالتها الأدبية . ذلك لأن ميًّا عاشت

Digitized by Birzeit University Library

في عصر تقدمت فيهِ النهضة النسائية من حيث فك القيود وكسر الأغلال التي تقيدت بها المرأة في هذا الماضي القريب . ومع أنها هي نفسها انطلقت من هذه القيود استجابةً لداعي التطور ووفقاً لحاجات العصر التي كانت لا بد أن تحملها من هذه الأغلال وتفكها من هذه القيود ، فانها بالرغم من ذلك دعت بنات جنسها ألاَّ يتمادينَ وراء هذه الحدود وألاَّ يسرفنَ في الاندفاع والتهور ، فأرادتهنَّ على ألاَّ يبالغنَ في الكفاح السياسي ، كما أرادتهنَّ على ألاَّ يضيعنَ حق الانوثة ، او يغفلنَ واجبات الأمومة

فكانت رسالتها في الحق دعوة مخلصة صريحة لأخواتها في الجنس ، وزميلاتها في الأنوثة وكان سبيلها في الدعوة الكتابة ، فهي كفتاة كاتبة قد خصصت شباة قلمها لنشرة دعوة آمنت بها وحرصت عليها ودافعت عنها باخلاص وصدق . فهي من هذه الناحية قد نجحت وأدَّت رسالتها — كامرأة — في حسن بلاء ، وصدق نضال

ولعل ميًّا نجحت في هذه الدعوة لأن المتزنات من النساء ممن اصبنَ حظًّا غير قليل من المعرفة ، وأدركنَ ما كنَّ يطمعنَ فيهِ من الثقافة والتحرير كنَّ يرينَ ما رأت مي ، ويزعنَ في الاعتدال منزعها ويذهبنَ الى ما ذهبت اليه من الحفاظ وعدم التفريط في خصائص المرأة أو التهاون في مميزاتها ويملنَ الى الاحتفاظ بسر أنوثتها وقدسية أمومتها

فضلاً عن أن « ميًّا » الشرقية بلحمها ودمها ، والتي أدنى الى ان تصل كتابتها الى الشرقيات ، قد يساعدها في قبول ما كانت تؤمن به وتدعو اليه تلك النزعاتُ الشرقية الكامنة والوراثة القديمة التي لا أشك في أنها أصون لمكانة المرأة من النفوس ، وأحفظ لمنزلتها من حيث السمو والكمال

(وهنا اشتدَّ تحمس الدكتور لفكرته وبان ذلك في صوته الذي كان يهدر كالسيل ، ثم تابع كلامه قائلاً) :

نحن نريد المرأة كما وصفها امرؤ القيس الشاعر الضارب في مجاهل البادية بقوله :

(وبيضة خدر لا يرام خباؤها)

نريد في المرأة معنى التصوُّن والتحصن الذي وصف الله بهِ الحور العين في الجنة بقوله :

(كأمثال اللؤلؤ المكنون)

نريد في المرأة معنى التحفظ لامعنى التبذل ، حتى يصح معنى القصر في قوله تعالى :

(حورٌ مقصوراتٌ في الخيام)

ولعلَّ من اسباب نجاح دعوة مي استعداد الشرق الوراثي ، والاستعداد الطبيعي في غريزة المرأة — هذا الاستعداد الذي ينزع بها دائماً لتتملك بما آتاها الله من رقة ، وحباها

Digitized by Birzeit University Library

من حنوّ، وأودع فيها من ضعف هو القوة بعينها . . . . لقد سلّح الله المرأة بسلاح يشبه الضعف من غير ان يكون ضعفاً . ففي قوته من الرقة والدعة واللطف والأنوثة والجمال والحرمة المقدسة ما يجعل للمرأة مكاناً قدسيّاً، ومحلاً فيه من جلالة التقديس، وطهارة التنزيه ما ينبغي ان يحول بينها وبين الامتهان والابتذال . المرأة أم الأبناء، ومستودع الذراري فلا ينبغي العبث بحرمتها . المرأة في مكان السمو، ومنزلة العلو، جعلها الله موضع ارادته، وسر مشيئته في تنمية الوجود، وحفظ النسل، واستمرار النوع، فهل يليق بعد ذلك ان تحل حرمتها، او تمتهن قداستها ؟

٤ — فسألته : (ما هي أجمل النواحي الاخلاقية التي كانت تعجبكم من مي ؟)

فقال : لقد كانت نواحي مي كلها جميلة معجبة، فلا أدري أيها أذكر وأيها أدع . كان فيها لطف وكياسة، وكانت مصقولة الطباع، رقيقة الحاشية، حتى لتكاد تفيض رقة. وأخص ما يعجبني منها نزعتان : الاولى انها كانت متحمسة لكل ناحية من نواحي الاحسان، فكانت أحسن الله اليها — على فقرها وقلة مواردها تتحمس للمعروف، وتتسابق الى الاحسان ومما أذكره لها أنها كانت في كل حفل من محافل الاحسان تشترك بما تستطيع من مال او مقال ولو قد آتاها الله بسطة في المال وسعة في الرزق ووفرة في الغنى لكان لها في عالم الخيرات والاحسان مكان يشار اليه بالبنان

والنزعة الثانية هي نزعتها الروحية الدينية الراقية، فما كنت اعرف عنها استهانة بما في الاديان من خير وجمال، او بما في الروحانيات من سمو وجلال

٥ — فسألته : (يتحدثون عن اعتزاز مي بشرقيتها واعتدادها وفخرها بهذه النسبة على الرغم مما أتيح لها من ثقافة غربية ومعارف أوربية فهل عند عزتكم من ذلك أنباء ؟)

فأجاب : — كسبت مي من الغرب طرائق البحث وطرائق الاتجاه . أما المثل الشرقية العليا فقد وجدت مي فيها كفايتها وحاجتها وشفاء ما في نفسها من تَوَوُّقٍ الى المثل الرفيع، والمثال الكامل . ولاشك أن مثل الغرب العليا على ما فيها من خير — تكاد تكون محصورة في نتائج مادية آلية صناعية علمية . على أن هذه المثل الغربية على ما فيها من تغلب المادة وتحكم الآلة

Digitized by Birzeit University Library

لا ينكر وجه الخير فيها . اما المثل الشرقية فهي مثل انسانية روحية سامية
هي مثل الحب والفناء فيه
هي مثل الدعوة الى الخير والاستمرار فيها
هي مثل الروح تسمو عن سفاسف المادة . وتتعالى عن مواطىء الاجسام
هذه المثل السامية وجدت من قلب مي الفتاة الشرقية استجابة اكثر من استجابتها الى صلصلة الماديات وجرس الآليات

ولذلك هامت مي بالشرق ، ونادت بالروح الشرقية . ونبهت الراقدين أو السابحين في الاوهام الى الاستجابة لهذه الدعوة

وكانت دعواتها وصيحاتها تتردد في كتابتها عن الشرق . ولقد اعترفت مي بضعفه المادي وفقره ، واقفاره من المظاهر السائدة الخلابة التي تظهر بها المدنية الغربية في ثوب موشى مزركش . ولكن مع اعترافها بهذا الفقر في الشرق ، وتسليمها بالإقفار السائد في مظاهره البادي في نواحيه فقد وجدت أن وثباته الروحية وتطلعه الى معاني الخير ومعاني الرحمة ومعاني الجمال وأن نزوعه الى السمو الروحاني هو أسمى بكثير من نزوع الغرب الى معاني القوة ومظاهر المادة

ولعل هذا يتساوق مع طبيعة الانوثة الرحيمة ، طبيعة المرأة الرقيقة ، والانسانية البارة الخيّرة التي تمثلت في مي بشراً سوياً

واذا كنا لا ننكر على مي ثقافتها الغربية ، ولا ننكر عليها استفادتها منها من حيث الطريقة والاتجاهات ، فاننا لا ننكر عليها أيضاً حقها — كامرأة وكشرقية — أن تهيم بالشرق الذي قالت فيه

(انها السماء التي أوحت بأعظم الرسالات الى الانسانية ، وأظلّت تفتّح الحياة وسيول الوحي والنبوّات . لأنك عشْتَ — ايها الشرق — لتكون الوطن الاول للعبقريات الاولى وللابطال والملهمين !

.... نهوضاً أيها الشرق ! حولك يناضل الاقوياء ويفوزون ممجدين نفوسهم في تأليه الغلبة ! فهلاّ سمعتهم مع ذلك يئنون في الظلام : « الى متى ننتظر الفجر الذي سيسطع ؟ »

.... أنت برج الضياء ، أيها الشرق !

انت موزع أشعة الحياة !)

فمي كانت تحب الشرق وترغب في مثله وتتأثر بطرائق الغرب من غير اندفاع في تياراته ومن غير اغفال للنواحي الشرقية السامية . وهذا أكبر دليل على أنها لم تكن مقلدة تقليداً أعمى

Digitized by Birzeit University Library

فقد عرفت كيف تستفيد من الغرب من غير أن تهمل الروح الشرقية

٦ — فسألته : (ما هي أجمل ذكرياتكم عن مي ، وما آخر رؤيتكم لها وعهدكم بها ؟)

فأجابني : لعلَّ أبقى آثار مي في نفسي أنها كانت تحدثني عن بعض خطراتي حديث الفاهم لها المدرك مراميها ومغازيها . وكانت تصارحني باعجابها بتلك الخطرات ، وكانت هذه المصارحة بالاعجاب تتكرر كلما لقيتها ، مما دلني على ذوقها الفني واتجاهها الفكري . وكنت أرتاح الى ما تبديه من اعجاب ، لا ظفراً بالثناء أو طرباً للاطراء ، ولكن لشيء أسمى من ذلك قيمة وأبعد مرمى ، لأن هذا الاعجاب الذي كنت أرى فيه صدقه واخلاصه وبعده عن زخرف القول وزور الرياء كان يدل على الأقل على أننا توافقنا في المعاني التي نكتب فيها والمذاهب التي نذهب اليها

لقد كانت مي صادقة في ثنائها على أسلوبي وكتابتي ، وكنت أعرف فيها هذا الصدق وأتبينه ، وأحسُّه في كل كلمة تقولها لي ، او عبارة تكتبها اليَّ ، فقد كتبت اليَّ بما ينم على هذا في إحدى رسائلها الخاصة

وآخر ذكرياتي عنها أنها زارتني في دار الكتب بعد عودتها الأخيرة من لبنان وكان في صحبتها أميرة لبنانية فاضلة وأخذنا بأطراف الاحاديث بيننا وذهبنا في القول مذاهب شتى الى أن جرَّ الحديث — وهو ذو شجون — الى شعوري في فقد ولدي (وهنا بدا التأثر على محدِّثنا الفاضل بارك الله له في البقية الصالحة من اولاده وأقرَّ بهم عينه) . وكنت أشعر في عرض الحديث أن ميًّا كانت تشاطرني مخلصة هذا الاحساس العميق . فكأنها كانت أرسلتها الاقدار في هذه الساعة لتخفف الوجد الذي أجد حينما أتيرت ذكرى ولدي

ثم أخذت تتجه في كلامها اتجاهات هي الى الفلسفة أدنى منها الى العاطفة، وهي الى الحيرة في فهم أحكام القضاء والقدر أقرب منها الى التسليم بالواقع المحتوم ، والقضاء المبرم

وكانت ميّ في الشام في عزلة قاسية، ووحدة مضنية بعد أن اصطلحت عليها الآلام والأحزان وحالفتها الوساوس والأوهام — مما يعرف القراء الأفاضل نبأه في حينه — وكنت أنا أزور الشام في ذلك الحين ، فرغبت في لقائها ، ولكنها كانت في عزلتها لا تلقى احداً ، ولا تقابل انساناً

وحدثني امين الريحاني بعض الحديث عنها ، وأخبرني انها كانت قريبة منه في الفريكة

Digitized by Birzeit University Library

وأودُّ هنا وأنا في معرض الحديث عن ذكرى مي ان اقرن ذكراها في عزلتها بلقائي لأمين الريحاني الذي ترك في نفسي أثراً طيباً

ولقد مات الريحاني وسار الى الغاية التي يسير اليها كل حي، وحُمِّل على الآلة الحدباء التي يُحمَّل عليها كل ابن انثى وإن طالت سلامته ... وماتت بعدهُ مي كما تموت الزهرة بعد ما كانت متفتحة بالامل، فوّاحة بالشذى، مخضلة بالطلّ الندي

ولو عاش الريحاني بعد مي، وقدر له ان تستأني خطواته الى الأبدية بعد خطواتها فلعله كان أولى الناس بالحديث عنها، وأجدرهم بأن يقص على الادباء سيرة من جهاد مي وكفاحها في سبيل تحقيق مثلها العالية

أنت تسألني عن أجمل ذكرياتي عن مي ولم تسألني عن أحزن ذكرياتي عنها كأنك تناسيت ما تثيره الذكريات الحزينة في نفوسنا من لذاذة الذكرى، لقد كنت في لبنان ضيفاً على امين الريحاني ساعة من الزمان كنت أنا وزوجي وابني فيها في بيته وضيافته، وحدَّثنا الريحاني عن مشاهداته ورحلاته، وحدَّثنا عن ذكرياته في بلاد العرب وحدثنا عن مي وعزلتها واستيحاشها، فكانت ساعة امتزجت فيها أجمل المحادثات بأحزن الذكريات ...

٧ — فسألته: (أي نوع من الكتب كانت مي تقرأ، والى أي حد بلغ شغفها بالمطالعة؟)

فأجاب. لعل ميًّا نفسها أجابت عن الشق الاول من سؤالك في مقدمة الكتاب الذي ترجمته باسم (ابتسامات ودموع). فقد اشارت في المقدمة الى النوع من الكتب الذي تحبهُ وتخصه بالايثار. أما شغفها بالمطالعة فقد كان كثيراً لاحد له، ولعل هذا هو السر في اتساع آفاق تفكيرها، وانفساح المدى امامها. وكانت شهوة المطالعة عندها لا تقف عند حد ولا تنتهي الى غاية، ولهذا درست كثيراً من اللغات الاجنبية وتمكنت منها وكانت تلتهم الكتب كما يلتهم النهم لقمة من الزاد، أو كما يزدرد الجائع كسرة من الخبز، وكان لها مكتبة خاصة تعتمد عليها وترجع اليها أكثر من رجوعها الى المكتبات العامة

وكانت مي تعتز بمكتبتها الخاصة اعتزازاً كبيراً، وتعتني بها عناية كثيرة، وتزوّدها كل يوم — على حسب مواردها — بما يظهر من كتب، ويجدُّ من تأليف. ولا أعلم مصير هذه المكتبة بعدئذٍ

٨ — فسألته: (عرفتم نديَّ مي أو صالونها الادبي، ألا ترون ان يكون مثلاً

Digitized by Birzeit University Library

للاندية الخاصة بدلاً من تلك التي يكثر فيها الكلام واللغو والتأثيم ، ويشيع فيها القيل والقال ؟)

فأجاب : لاشك ان منتدى مي أو « صالونها » كان حافلاً بنواحٍ ادبية ، ومملئاً بأشتات من العلم وألوان من الثقافة ، ولكني كنت أتمنى ان يكون هناك أندية « صالونات » نسائية بحتة ، يشيع فيها الأدب والتفكير الراقي على ما ينبغي ان يكون بين المتأدبات المثقفات من الآنسات والسيدات ، والبنات والأمهات ، كما تكون هناك اندية ادبية بحتة تجمع بين الشيوخ والشيوخ أو بين الشباب والشباب ، او بين الشيوخ والشباب ويشيع فيها كذلك الأدب الراقي الرفيع من غير حاجة الى كثرة الاختلاط . اما اذا اقتضى الأمر الاختلاط فليكن بمقتضياته وظروفه ومكملاته بحيث لا يندس في هذا الاختلاط من لا حصانة تعصمه من كل ما يخل بآداب الاختلاط الراقي ، ليس بالنسبة الى الآداب الظاهرة فقط ، بل في الدقائق الخفية ، وفيما يبدو عليهِ من القول والاشارة والعبارة ، وفيما يخطر على خفايا النفس من التصورات الآثمة والمضمرات السيئة

ولقد كان منتدى مي راقياً لأنها كانت راقية بأخلاقها ، سامية شريفة في افكارها ، وليست كل فتاة او سيدة قديرة على ان تشيع في نديها الخاص — لو كان لها ندي — ما كانت تشيعه مي في منتداها من أدب ومحافظة . ولعلي لا أعدو الصواب إذا قلت انهُ في العصر الحديث وجدت منتديات نسائية سبقت منتدى مي ، حتى ان بعض الأميرات المصريات من البيت المالك وهي الأميرة « نازلى » كان يغشى مجلسها أمثال قاسم امين وسعد زغلول والشيخ محمد عبده

ولعلَّ مجلسها كان يشيع فيهِ الأدب الراقي ، وتتناول فيهِ المسائل الاجتماعية العالية ، وتدار فيهِ الأحاديث الرفيعة في الوان من الأدب ، وأنواع من البحث . فليست مي هي البادئة بهذا في العصر الحديث وقد سبقتها الى هذا فيما نعلم اميرة مصرية فاضلة . وقد يكون هناك بعض السيدات الفضليات ممن سبقنَ ميًّا الى انشاء هذه الأندية الأدبية ، ولعل ميًّا اشتهرت « بصالونها » لأن بابهُ كان أوسع ، وأنا ممن يميلون الى تضييق هذا الباب

ولم ينفرد نساء العصر الحديث بهذا ، فقد سبقتهنَّ السيدة الجليلة سكينة بنت الحسين ابن علي ، وكانت — كما يروي صاحب وفيات الأعيان — سيدة نساء عصرها ومن أجل النساء وأظرفهن وأحسنهنَّ اخلاقاً . وكانت لها نوادر مع الشعراء ومساجلات مع الأدباء ورد ذكرها في بعض كتب التاريخ والأدب

Digitized by Birzeit University Library

حضرة الاستاذ

ابراهيم عبد القادر المازني

لم أرَ في حياتي (المازني) قبل اليوم الاَّ مرة واحدة ، وكان ذلك من عهد غير قريب ، أيام كانت (السياسة الاسبوعية) في أول عهدها

ولكنني رأيت بعد ذلك (المازني) مرات يخطئها الحصر ويفوتها العد في كتبه ومقالاته وقصصه

ولقد عرَّفني الى (المازني) — ولا أعني التعريف بالاجسام وما يصحبهُ من التقاء اللحظ ، ووقوع العين على العين ، ومصافحة الأيدي بالسلام ، وانما أعني التعريف بأدب المازني وأسلوب المازني ومكانة المازني بين الأدباء — عرَّفني بذلك استاذي الجليل المرحوم الشيخ احمد الاسكندري ، وكان كثيراً ما يستعرض في دروس الادب بدار العلوم المعاصرين من الادباء والشعراء والكتّاب — حتى السياسيين منهم — وكانت له فيهم آراء ونظرات

***

وكان الأسكندري كثير التحدث عن (المازني) وخاصة عن نصاعة أسلوبه العربي مع بعده عن التكلف ، ودقة تصويره لدقائق الامور وصغائر الأشياء مما لا يتاح لكثير من الكتّاب . وشهادة استاذ جليل كالمرحوم الشيخ الاسكندري المتمكن من اللغة العربية ، الواقف على كثير من أسرارها وخصائصها ، وفقهها وأساليبها لها قيمتها وأثرها . ولم يكن الشيخ ممن يعجبون أدنى اعجاب بالمذاهب الافرنجية في الكتابة او ممن ينزعون الى منازع الركاكة باسم التجديد ، والله يعلم انهم ضيّعوا قديمهم فلم يبقِ لهم جديد

والمازني كان معلماً قبل ان يتخذ الكتابة صناعةً له ، ولعلهُ كان مدرساً موفقاً كما وفقهُ الله في أدبهِ . وقد ذكر العقاد في مقال قريب له (بالرسالة) أن المازني (كان مسيطراً على التلاميذ ، قلّما يحتاج الى معاقبة أحد منهم لخروجه على نظام الحصة ، لانهُ كان مهوباً بينهم قديراً على أخذهم بما يهابونه اياه قبل خوفهم من عقابه)

والحق ان المازني على صغر جسمه كبيرٌ في قلبه ، مهوب في طلعتهِ ، وله في الالقاء والحديث طريقة جذّابة ، فهو يُغري سامعه بمتابعته وينتقل بهِ من معرض الى معرض في أبانة واطالة ، فاذا أوجز ودَّ جليسهُ أنهُ لم يوجز . . .

Digitized by Birzeit University Library

وكان المازني يقول الشعر ، وكان كبيراً في مجاله وميدانه ، وله فيه مذهب معروف ، وله في الشعراء رأي خاص ، ولكنه شعر هذه الروضة الجميلة التي تسعد النفس في أحزانها وانصرف الى الكتابة والى السياسة ، وشغلته دنيا الناس عن دنيا الشعراء . . .

والعقاد والمازني اسمان متلازمان يستدعي ذكر أحدهما ذكر الآخر . ولعلّ لاشتراكهما القديم في نقد بعض الشعر الحديث أثراً في ذلك . ومن الغريب أن يذكرهما الدكتور تشارلز آدمس في كتابه على السواء متلازمين حين يعرض للكلام على تأثير الشيخ محمد عبده فيهما

كانت فرصة الحديث مع الأستاذ المازني من أسعد الفرص التي ظفرت بها في الحديث عن (مي) الى قراء المقتطف . ولقد تشعب الحديث ألواناً وفنوناً وأخذ كل مأخذ ، وتخللته لحظات طوال أو قصار — كان يستعرض فيها الأستاذ بعض ماضيه ، ويقص بعض ذكرياته في صباه وشبابه ، (وفي الطريق) وفي مدرسته ، وفي الحظ الذي كان دائماً معه على اتفاق . .

والمازني يبدو في كتابته ، كما يبدو في أحاديثه شديد الحنين الى الماضي ، فهو وفيّ له في أي مظهر كان ، نزّاع اليه ولكن هيهات أن يعود :

فليست عشيّات الحمى برواجع عليك ولكن خلّ عينيك تدمعا

***

١ — سألته : (كيف عرفتم ميّا ، وما هي ذكرياتكم التي تحفظونها عن أول لقاء ؟)

فأجاب : لا أذكر متى عرفت فقيدتنا العزيزة ميّا او كيف عرفتها فما يبقى في ذاكرتي من شيء الاّ صورته . وأكبر ظني أني عرفتها بعد ان أصدرت مع صديقي الاستاذ العقاد كتاب « الديوان » في النقد . على أني لست واثقاً ولعلي عرفتها بعد صدور كتابي « حصاد الهشيم » . وكل ما أذكره — لأنه صورة وذاكرتي « فوتوغرافية » — هو أني تلقيت منها ذات يوم بطاقة مكتوبة بخط جميل تدعوني فيها الى زيارتها في يوم ثلاثاء . أما أي ثلاثاء ومن أي شهر او عام فعلمه عند الله . وقد استغربت يومئذ حسن الخط وتوهمت انها استكتبت أحد الخطاطين وعددت هذا من التكلف الذي لا داعي له . وما كنت أمقت التكلف وأنفر من الاجتماعات الكبيرة فقد زهدت في الزيارة التي دعيت اليها ووطنت نفسي على التخلف . ومن حسن الحظ أني نسيت ان أبعث اليها برد او اعتذار . وأحسب ان الاستاذ العقاد هو الذي هوّن عليّ الأمر وشجعني على قبول الدعوة وعرّفني ان هذا خطها لا خط خطّاط فلم أجد مناصاً بعد ذلك من تلبية الدعوة الكريمة

Digitized by Birzeit University Library

وأقول « الكريمة » لأني كنت سيء الأدب معها او على الأصح قليل العقل . ذلك أنها كانت أهدت اليَّ كتابيها (الصحائف) و (ظلمات وأشعة) فألفيت نفسي نافراً غير مستعد لحسن الرأي فيهما ولعلَّ كلمة (الظلمات) هي التي ساء وقعها في نفسي فكتبت بضعة فصول في الاخبار — نشرت بعد ذلك في (حصاد الهشيم) عن (الواجب) و (الكتب والخلود) و (الطبيعة عند القدماء والمحدثين) ولم أتناول الكتابين بأي بحث وانما كتبت ما كتبت لمناسبة اهدائهما اليَّ وكانت هذه قلة ذوق على التحقيق . وكان اهمل ابداء الرأي لايخلو من معنى الاستخفاف فبأي وجهٍ ألقاها وقد صنعت ذلك . . ولكنها غفرت ذنبي وأغضت عن قلة ذوقي وعسى ان تكون قد حملت ذلك مني على محمل الغرور او الطيش او الحماقة التي يركب الشاب بها الحياة ولولا أنها صفحت عني لما دعتني . فمن الاقرار بالذنب والاعتراف بالخطإ ومما ينطوي على معنى الاعتذار ان أُلبي الدعوة . وحدثتني نفسي وقد دارت فيها هذه المعاني انها لابدَّ ان تكون مرهفة الاحساس عظيمة مروءة القلب رحيبة الأفق وانها على كل حال لابدَّ ان تكون ظريفة فتوكلت على الله وذهبت

وأعترف أني دخلت متهيباً مستحيياً ووقفت على الباب متردداً — متهيباً لقاءها، مستحيياً ان أحشر نفسي بين زوَّارها الذين قيل لي أنهم من كل طبقة، ومتردداً لأني لم أعتد هذه المجالس ولأني أعرف من نفسي شدة النفور من هذه الطبقات التي تعد نفسها ممتازة او عالية او لاأدري ماذا أيضاً . على أني دخلت بسلام فاستقبلتني هاشة باشة (شاكرة) فتعجبت ولا أظن أني نطقت بحرف وقعدت حيث أومأت . وكان هناك الاساتذة — ومعذرة اذا لم أذكر الألقاب — لطفي السيد وخليل مطران ومصطفى عبد الرازق والمرحوم السيد رشيد رضا وابن أخيه محيي الدين رضا والاستاذ العقاد وآخرون كثيرون امتلأت بهم حجرات الدار وكانت المرحومة انها تساعدها على الترحيب بالضيوف واكرامهم، ولا أذكر انهُ دار بيني وبينها حديث، وكانت كلما مرت بي تلقي لي كلمة تحية أو تكتفي بالابتسام وأنا كالأخرس لاأنبس ببنت شفة . واذا بهذا الجمع الحاشد يخرج من الحجرات الى الردهة الفسيحة واذا بها تقف لتخطب فارتعت ووجمت فما أكره شيئاً كراهتي للخطب وقالت شيئاً سمعت منهُ اسم (ماكس نورداو) فانطلق لطفي السيد باشا يصفق فتعجبت لهذا الرجل ولما عددته يومئذٍ اسرافاً في التلطف والمجاملة ولم اصغ لشيء مما قالت ورأيت كثيرين ينهضون شاكرين مثنين وصار هذا يدعو ذاك لالقاء كلمة فخفت وزادني رعباً ان السيد محيي الدين رضا همس في أذني انهُ سيدعوني الى الكلام فقلت والله لئن فعلت لأقولنَّ ما يسوء فما أنا من رجال الصالونات ولست أحسن هذا الضرب من الكلام وماجئنا هنا ليتبنى بعضنا على بعض وعلى أني لاأعرف لماذا جئنا أو دعينا...

Digitized by Birzeit University Library

واتفق في هذه اللحظة ان مرت بي الآنسة مي فحاولت ان انهض لها فنهتني عن ذلك وعرّفتني انه غير لازم فوجدت لساني وقلت لها معتذراً من جهلي اني من عامة ابناء الشعب ولست من روّاد الصالونات فأرجو ان تتجاوزي عن اغلاطي. فقالت بابتسامة وديعة: — لا تقل هذا الكلام . قلت : ألا تحبين ان تعرفيني على حقيقتي . قالت : طبعاً . قلت : تقي اذن اني من ابناء الشعب ولا أستطيع — ولا أحب — ان ارتقي عن هذه المنزلة فتبسمت وهزت رأسها . ولا أدري الى هذه الساعة أكان هذا منها أسفاً أم رفضاً للتصديق وانما الذي أدريه اني كنت جادّاً جدّاً

وبدأ الناس ينصرفون وهمّ الاستاذ العقاد وهمت بالخروج فأخرتنا واستبقتنا — استغفر الله بل استبقت ايضاً الاستاذ خليل مطران — وجلسنا نحن الاربعة في حجرة الاستقبال الكبرى وكان نصيبي منه الاصغاء مطرقاً حيناً وناظراً اليها حيناً آخر ومعجباً بها في الحالين وان كنت قد شعرت اني غير فاهم شيئاً مما يقال لفرط اشتغالي بما في نفسي

وخلوت بنفسي في تلك الليلة ورحت افكر فيما رأيت وسمعت فأعجبني من الآنسة مي ان احتفالها برجال الادب كان أبين من احتفالها بغيرهم وسرني على الخصوص رقتها وتلطفها حين أخرتنا واستبقتنا كأنما كان همها كله هو ان تجالسنا نحن لاسوانا . وتذكرت ماكس نوردو وتصفيق لطفي السيد الذي أسخطني فراجعت نفسي في سخطي عليه وراجعت ماكس نوردو فاذا الكلمة التي استهلت بها كلامها منه معناها ان الاعتراف بالجميل ينطوي على الأمل في دوام هذا الخير ولو انقطع الأمل لكان الأرجح ان لا يكون شكر او اعتراف بمعروف فهي اي الآنسة مي تشكر الذين لبوا دعوتها شكراً فيه معنى الامل في مواظبتهم على الحضور . وكانت هذه براعة منها ولم يكن تصفيق لطفي السيد اذن في غير محله . ولقد كنت خليقاً أن أصفق مثله لو انه كانت لي مثل فطنته او على الاقل لو كنت ساعتئذٍ معنيّاً بالاصغاء

ولا أدري هل عدت بعد ذلك الى زيارتها ام لم أعد فان كنت عدت فقد كان ذلك ولا شك بدافع من الاعجاب والاكبار وان كنت كففت فالعلة لابد ان تكون نفوري مما يسمى « الصالون »

٢ — فقلت : (هل تعرفون شيئاً عن رسائل « مي » والمكاتبات التي دارت بينها وبين الشعراء والأدباء ؟ وما رأيكم في نشر الرسائل العامة منها التي تتعلق برأي في الادب ، او فكرة في الحياة ، او نقد لمذهب ، او تعليق على كتاب ؟)

Digitized by Birzeit University Library

فقال : أعرف ان كثيرين من الأدباء كاتبوا ميًّا وكتبت اليهم والذي يعرف ميًّا لا يرى بأساً من نشر رسائلها الى أصدقائها فما أحسبها اشتملت على غير آرائها في الحياة والأدب والكتب وما الى ذلك ويصعب جداً ان أصدق — الاَّ اذا قام الدليل على غير ذلك — ان ميًّا كانت تتناول في رسائلها اموراً شخصية . على اني ممن لا يرون نشر الرسائل الخاصة ولو كانت بحتاً صرفاً وليست مي بيننا حتى يمكن ان تستأذن في النشر، ولا أرى من حق أحد أن ينحل نفسه هذا الحق

ويحسن ان اقول اني لا أخشى ان يكون في رسائل ميّ او رسائل احد اليها ما ينض من حسن الرأي او الاعتقاد فيها . والارجح عندي ان نشرها يعزز مقامها ولكني مع هذا لا أوافق على النشر لان هذا جانب من حياتها الخاصة ولا شأن للجمهور بها

٣ — فقلت : (سألتني سيدة أديبة كبيرة عن رأيي أنا في كتب مي ، وهل سيكتب لها كلها او لبعضها الخلود ؟ فلم أبد لها رأياً خاصًّا ورأيت ان أحيل السؤال بدوري عليكم)

فقال : حولتم عليَّ سؤالاً ألقتهُ عليكم سيدة اديبة كبيرة عن كتب مي وهل سيكتب لها الخلود . والجواب — أي جواب — لا يخلو من اجتراء على الغيب . على اني أقول اني أومن بالفناء في الدنيا ولا أومن بالخلود لشيء فيها ، فلا الأدب ولا غيره يبقى ولا الحياة نفسها ولا الكرة الأرضية كلها، وتصور يا سيدي ان كل جيل من كل أمة في كل عصر يخرج طائفة غير قليلة من الكتّاب والادباء والشعراء . وكم عدد من يظهرون في الامم جميعاً في العصر الواحد . . مئات .. وكم عدد من يذكر العالم في حاضره من عشرات الآلاف الذين سبقونا... وسيصبح عشرات الآلاف ملايين على الادهار . . نعم ربما بقيت الكتب محفوظة في دورها فيكون البقاء معناه الدفن . . لا يا سيدي

وأنا أعتقد ايضاً ان العالم سيستغني عن الألفاظ واللغات في المستقبل البعيد كأداة للفهم والافهام وسيستطيع بعد مرور أحقاب كافية ان يتخاطب ويتراسل ويتفاهم بموجات يرسلها كما يرسل الآن موجات لاسلكية يذيعها في ارجاء الارض فيسمع القاصي والداني . وحينئذٍ يستغني العالم عن الأدب المكتوب كله

٤ — فسألته : (أترون لو ان ميًّا عاشت حياتها كلها في لبنان دون مصر أكانت

Digitized by Birzeit University Library

تبلغ في ذرى جباله ، وتحت ظلال أرزه ما بلغته في مصر من مرتبة أدبية على شاطئ ، نيلها وتحت ظلال أهرامها ؟)

فأجابني : تسألوني هل لو كانت ميّ قد عاشت في لبنان دون مصر أكانت تبلغ ما بلغت من مرتبة ممتازة في عالم الادب والجواب نعم ولاء فاما نعم فلان ادب ميّ متأثر بتيارين على الخصوص . الأول التيار الذي أوجده اليازجي وزملاؤه وعلى هذه الطبقة تأدبت ميّ على الخصوص وبهم تأثرت من الناحية العربية واليهم يرجع الفضل في سلامة اسلوبها ونقائه وهذه الطبقة كلها او معظمها من اللبنانيين . وأما الثاني فهو تيارات الادب الغربي الذي توفرت على درسه باللغات المختلفة التي كانت تتقنها وتقرأ وتكتب بها ، وترون من هذا انه كان يستوي ان تحيا في لبنان او في مصر . ولكن شهرتها — لو كانت قد بقيت في لبنان — كانت خليقة أن تكون أقل وفي نطاق أضيق . ويلاحظ في تاريخ الادب العربي القديم ان كل من اتصل بمصر في حياته كان نصيبه من الشهرة أوفر . لا أدري لماذا . ولكني ارى ان هذا هو الواقع ولو اتسع المقام للافاضة في البيان لفعلت وهو على كل حال باب من القول لا يغني فيه الاجمال فيحسن الاكتفاء بما أسلفت

٥ — فسألته : (ما رأيكم في أسلوب مي وفي طريقتها التي اتخذتها للتعبير عن آرائها وأفكارها ؟)

فأجاب : أما أسلوب مي فسليم نقي ، وقد اشرت الى قلة عقلي لما تلقيت كتابيها ذلك أني أكره الاسلوب العاطفي أو الوجداني وقد نسيت وأنا اقرأ كتابيها أن الكاتبة امرأة وانها لا تكون مخلصة لنفسها وطبيعتها الا اذا كتبت بروح المرأة وأنها بغير ذلك تكون متكلفة ولا قيمة لها . وقد كانت مي امرأة صادقة الانوثة غير طائشتها ومخلصة لجنسها وطبيعته أعظم اخلاص . وأحسب اني قد بينت كيف كنت قليل العقل

٦ — فسألته : (ما رأيكم في منزلة مي بين كتّاب العربية ؟)

فأجاب : — الجواب عن سؤالك هذا سؤال مثله : هو أين في العربية من النساء من يضارعها حتى يكون هناك محل للمفاضلة ؟

Digitized by Birzeit University Library

حضرة الاستاذ

خليل مطران بك

خليل بك محدّث من الطراز الاول ، ان طال لم يملّه سامعه ، وان أوجز ودّ المحدث اليه لو انه لم يوجز . وهو شاعر في نثره ، كما هو الشاعر في شعره . فاللفظ متخير عذب ، والكلمة منتخبة رشيقة ، والبيان مفصّل والمعنى مقسّم . وفي القائه حسن يزيد من حسن بيانه وفصاحة لسانه . فكأن حديثه — على عمومه — ضربٌ من الشعر او لونٌ من السحر

ولقد عرف خليل مطران « ميًّا » كما سيجيء في عرض حديثه ، فدامت المعرفة ، واستحكمت الصلة ، واستوثق الود أكثر من خمسة وعشرين عاماً ، في زمان وهنت فيه العلائق وتراخت فيه العهود والمواثق فكان « خليل » الخليل الصافي ، والرفيق الوافي كما هي شيمته مع كل من عرفوه ، وسجيته مع كل من اتصلوا بأسبابه

ولقد وقفت « مي » منذ أكثر من ربع قرن — وكان ذلك بالضبط في سنة ١٩١٣ — في جمع حافل من الادباء والعلماء ، والكبراء والعظماء تكرم « خليل مطران » بمناسبة الانعام عليه بوسام خديوي ، كما القت في ذلك المحفل كلمة بعث بها « جبران خليل جبران » فكان ذلك أول عهدها بالمواقف ، ومفتتح أمرها في المجامع والمحافل . فأحسنت الالقاء ، وكان صوتها كما قال الدكتور طه حسين بك عذباً لا يكاد يبلغ الأذن حتى يصل الى القلب

بعد ذلك العهد البعيد وقف مطران يدفع ثمن ما أسدت اليه مي من الجميل . قلت له :

(أسألكم بوجهِ عالم عن مي من حيث شاعريتها ورأيها في الشعر)

فأجاب هذا الجواب المستفيض : لا بأس قبل الحديث عن مي ان أشير الى أول معرفتي بها . فقد جاءني يوم من الأيام الشيخ يوسف الخازن وكان صاحب جريدة الاخبار المصرية وناولني ديوانًا من الشعر مكتوباً عليهِ اسم المؤلفة (إيزيس كوبيا) . ولم يكن هذا الاسم الاّ ترجمة او مقابلاً لاسم (مادي زيادة) وطلب مني بعد اتمام قراءته ان أكتب عنهُ كلمة في جريدته ، على نحو ما يصنع بكل كتاب جديد لتقديمه الى القراء

قرأت الديوان فوجدته مكتوباً باللغة الفرنسية بعبارة سليمة تنم على دراسة متقنة دقيقة ومعرفة صحيحة بهذه اللغة

Digitized by Birzeit University Library

وبالبداهة كل ما بقي الى الآن في ذهني من أثر هذه الكتابة وبعثت بها الى جريدة الاخبار في ذلك الوقت ، كان مؤداه أني بعد مطالعة هذا الكتاب تمثل لديّ قفص من الذهب يتحرك في داخله ويتنقل بين أسلاكه اللامعة عصفور صغير ملوّن الريش ، مرح كل المرح كأنه يضرب بأجنحته الصغيرة جوانب هذا القفص الذهبي ليفلت من قيود أسلاكه وينطلق منه الى الفضاء الواسع والجو المطلق الفسيح لأنه لا يطيق الاحتباس ولا يقدر على ان يكون سجيناً في مكان ضائق بأمانيه في الحياة . وتبين — لما عرفت ميّاً بعد ذلك — ان العصفور الصغير لما بدأ الحياة خارج المدارس وأقبل على مغامرات تكشفت أمامه وسائل النجاح القريب ، ورأى آفاقاً بعيدة للآمال ما كان ليحجم عن التوجه اليها بكل قواه . فأخذت مي تقرأ الادب العربي وتتعلمه ، ورأت ان مجالها يكون أفسح حين تكتب بلغة قومها ، وان ميدانها يكون أرحب وأوسع حين تعبر بلسان أهلها ، ورأت كذلك ان تثقفها المنشود لا يتخذ له ذريعة أقوى من ان يستند الى شعورها الشرقي ، والطبع الأصيل الذي أخذته من منبتها

وكانت فطرتها تعينها على المجهود المطرد القوي ، فما لبثت ان تضلعت من اللغة العربية تضلع الذين قضوا وقتاً طويلاً في مدارستها . وهنا انتقلت فيها الشاعرية من الطريقة التي كانت قد بدأت بها في ديوانها الاول — طريقة العروض والروي — الى طريقة البيان الآخذ بين النظم والنثر مما له خصيصة في اللغة العربية . ولك ان تقول ان شاعريتها في اللغة العربية كتبت بطريق النثر الفني وهذا هو ما اختصت به في اسلوب كتابتها الى ان ماتت فتكتب مصورة وملحنة ، ومقسمة للكلام على تقاسيم شعر خفي تتحرك به النفس

واتفق بجانب هذا انها كانت قد أوتيت فيما أوتيت من مواهب قوة الفصاحة اللسانية والتعبير العجيب برنات الصوت واشارات النظر والايدي . فلم تلبث ان ظهرت بمظهر الخطيبة التي لا تجارى وهي تلقي كلامها من فوق أعواد المنابر . ولقد يبلغ بك الظن وأنت تسمعها تخطب انه لو ان ممثلة من كبريات الممثلات أخذت كلامها وألقته لا يكون عندها من ابراز المعاني ما عند مي بهذه السهولة وذلك اليسر . فلا ننسى انها كانت لها هذه المقدرة الصوتية من غير كلفة ومن غير ان يبدو هناك عناء او تصنع

مضت في كتابتها ناحية هذا النحو واستطاعت به ان تتناول اغراض الحياة وان تبحث فيها كما يبحث الذين يشتغلون بالصحف أو بتأليف الكتب الاجتماعية القريبة التناول . وذلك بقصد اشاعة فكرة الخير والعدل بين الناس ، والتنبيه الى كل ما هو واجب او مستحب لنهضة الأمة تارةً ، ولنهضة كل فئة من فئاتها تارةً أخرى . وبهذا نزلت الى ميدان العمل

Digitized by Birzeit University Library

الكتابي ، ولكنها بقيت على طريقتها من الانشاء الشعري الاحتفالي . ورأت بعد ذلك لاستكمال ثقافتها ان تقرأ ما شاء الله من دواوين العرب وأمهات كتبهم . وكذلك قرأت من دواوين الفرنجة وأمهات كتبهم ما لا يكاد يحصى ، ثم اندفعت لتعلم اللغات الأجنبية وأتقنت منها بضعاً اتقاناً كان يحار له ابناء تلك اللغات . وفوق هذا طالعت المذاهب الفلسفية المختلفة وكانت تتحدث حديثاً عجيباً عموازنات بين الادباء أحياناً والشعراء أحياناً والفلاسفة أحياناً بما يقضي له عجباً

فمع كل هذا العلم الواسع والادخار الكبير من ثمرات المطالعات التي لم تنقطع عنها يوماً أو بعض يوم ، وأفنت فيها معظم مجهوداتها كان الشعر من حيث هو أعاريض وقوافٍ قد أصبح من الاشياء التي تفكر فيها كما يُفكَّر في التحف الفنية ، والألطاف البديعة ، والزينات الشائقة ولكنها لم تر ان تذهب في مطالبة نفسها بهذه الصناعة إلى أبعد من هذا الحد

لم يحصل أن ميّاً آثرت ديواناً على ديوان أو فضلت شاعراً على شاعر — وهذا بقدر علمي — وكان يطربها في الشعر ويأخذ من نفسها كل مأخذ إما الشعر العالي الخيال ، المخدوم الصياغة الذي ينبه في النفس العواطف تنبيهاً قويّاً ، وأما الشعر الذي كتب لأغراض موحَّدة فُصلت فيه تفصيلاً محكماً ، وقدّرت أجزاؤها تقديراً مترابطاً ، وانتهت به الى مغازٍ ومرامٍ تقع موقعها من الانسانية عامة أو من أمة معينة يكون قد كُتب لها ذلك الشعر

لم تغرم ميّ بالموازنات بين شعر وشعر لأنها كانت تخشى بذكر ايثارها لنوع من الشعر على الآخر أن يكون في ذلك تثبيط لأية حركة تريد امم الشرق أن تندفع بها الى تعديل أو تبديل أو اصلاح فيما ألفته وجمدت عليه دهراً طويلاً

بقي أن أقول لك — وذلك ليس من موضوع شاعرية ميّ — أن كل عنايتها كانت اصلاحاً في الأخلاق والآداب ، اصلاحاً في روح الأمم ومطالبها اصلاحاً في المعايشة بين الجنسين ، اصلاحاً في التربية — وخاصة تربية الاطفال ، اصلاحاً في توزيع الاحسان وتدبير شئونه بدل أن يكون مقصوراً على صدقات تكاد تكون بلا قيمة في النهاية . ذلك كله كان موضع عناية ميّ ومثار مشاغلها ، وأما مناقشتها في المسائل العلمية فكانت تجد سامعيها ، ولم يكن كلامها في مسألةٍ كلام عابر سبيل ، أو حديث غير المتثبت ، بل كان كلام الواثق ، وحديث العارف . وما ادعت يوماً أنها فيلسوفة وكذلك كان موقفها من الشعر تقرأ وتفهم ما هو أحلى وأصفى ولكنها لا تدعي أن تتعرض للفضاضة . أعني بجملة الكلام كانت في نهاية أمرها قد بقيت فيها روح الشاعرية كامنة ، ولكنها — على كمون هذه الروح فيها — لم تشتغل بالشعر ولاحواليه من حيث هو صناعة

Digitized by Birzeit University Library

فهرس الكتاب

صفحة	
٥	ترجمة الآنسة مي
٦	مي الشرقية
١١	مي والفكرة العالمية
١٤	مي والأديان
١٦	مي واللغة العربية
٢٠	أسلوب مي
٢٤	التهكم عند مي
٢٥	مي الخطيبة والمحاضرة
٢٩	مي الشاعرة
٣١	مي والموسيقى
٣٣	مي والنهضة النسائية
٣٥	مي الكاتبة
٣٨	منتدى مي
٤١	أحاديث عن مي
٤٢	حديث صاحب المعالي الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا
٤٨	حديث صاحبة العصمة السيدة هدى هانم شعراوي
٥٥	حديث صاحب العزة الدكتور طه حسين بك
٦١	حديث النائب المحترم الاستاذ عباس محمود العقاد
٦٧	حديث السيدة الفاضلة ايمي جورج خير
٧٣	حديث صاحب العزة الشيخ المحترم انطون الجميل بك
٧٩	حديث صاحب العزة الدكتور منصور فهمي بك
٨٨	حديث الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني
٩٤	حديث صاحب العزة الاستاذ خليل مطران بك

Digitized by Birzeit University Library

نشرت سلسلة « أحاديث عن مي » للمؤلف
بين الصفحة ٤١ — ٩٦ من هذا الكتاب
في مقتطف يناير سنة ١٩٤٢

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

PJ7826 .Z5 1942
BIRZEIT UNIVERSITY LIBRARY
A00058
A00058

Digitized by Birzeit University Library